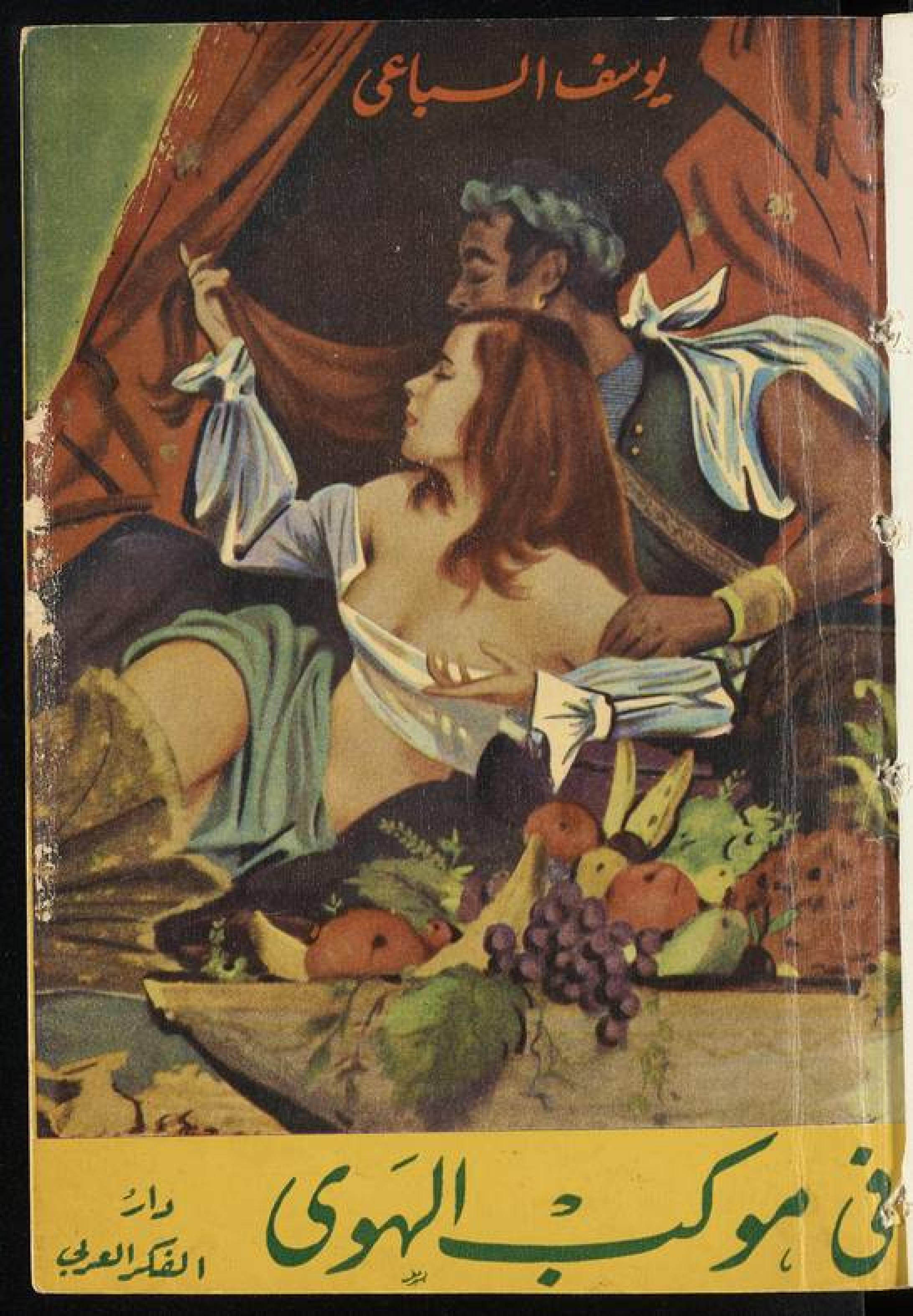

يوسف السباعى
فى موكب الهوى
دار
الفكر العربى

١٨

al-Sibāʻī, Yūsuf

يوسف السباعى

أحمد زكي أبو شادي
A.Z. Abushady

Fī mawkib al-hawā

فى موكب الهوى

سيطر الحب على دنياكم
كل شىء ما خلا الحب عبث
شوقى

الناشر
دار
الفكر العربي

١

الرسم بريشة الفنان الأستاذ

عبد العزيز صادق

الإهداء

إلى الخُرَّد الغيد ..

الهيف القدود ..

الداميات الخدود ..

الفائرات النهود ..

إلى الصائلات بالجفون ..

المسكرات بالعيون ..

الساقيات من الشفاه رضابا

الموقدات فى الضلوع لهيبا ..

إلى الملهمات المشرقات ..

الناضرات الزاهرات ..

إلى اللاتى دفعننى فى ركب الغرام

وقدننى إلى موكب الصبابة والهيام ..

أُهدى كتابى هذا

وما أنا بإهدائى إلا معيداً إليهن بعض هبتهن ..

أو مهدى إليهن ، صنع فتنتهن وأثر سحرهن .

يوسف السباعى

65-14

للمؤلف

١ — أطياف
الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
طبع فى شركة فن الطباعة - يناير سنة ١٩٤٧

٢ — نائب عزرائيل
الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
طبع فى شركة فن الطباعة - نوفمبر سنة ١٩٤٧

٣ — اثنتا عشرة امرأة
الناشر : مكتبة الخانكى
طبع فى شركة فن الطباعة - مارس سنة ١٩٤٨

٤ — خبايا الصدور
الناشر : دار النشر العربية
طبع فى دار الأحد ببيروت لبنان مايو سنة ١٩٤٨

٥ — يا أمة ضحكت
الناشر : مكتبة الخانكى
طبع فى شركة فن الطباعة - أغسطس سنة ١٩٤٨

٦ — اثنا عشر رجلا
الناشر : مكتبة الخانكى
طبع فى شركة فن الطباعة - فبراير سنة ١٩٤٩

٧ — أرض النفاق
الناشر : مكتبة النهضة المصرية
طبع فى مطبعة السعادة الكبرى - ابريل ١٩٤٩

٨ — فى موكب الهوى
الناشر : دار الفكر العربى
طبع فى شركة فن الطباعة - يوليه سنة ١٩٤٩

مقدمة

« كيف أكتب عن سواك والذهن قد خلا إلا منك ؟

كيف أكتب عن سواك ونفسك ملء نفسى ؟

وصورتك ملء ناظرى ، وصوتك ملء أذنى ؟.

إنى أمسك بالقلم على الورق فيقف فى جمود وحزن واكتئاب . فلا يكاد يمر بنا طيفك حتى تصيبه هزّة ، وإذا به قد شدا وترنم وصفق وهفا ، وسطر على الورق أنغاماً وألحاناً ،

أيتها الملهمة المجهولة .

يا ساقيـــة النعيم .. يا منبع الرجاء .

يا حلوة الروح .. يا مهدية الأمل .

أيتها الملهمة المجهولة .. التى لا تغرب لها شمس ، ولا يأفل لها نجم .. ولا يغيض على الزمن وهجها .. ولا يخبو على السنين بريقها .

أيتها الملهمة المجهولة .. ما أوفاك وقد عزّ الوفاء ، أنت لا تغيبين ولا تزولين .. أنت دائماً حاضرة تطوفين

بالذهن كما يطوف الحلم بالنائم .. أشتم ريحك فى عبق النسائم وأسمع صوتك فى هديل الحمائم .

قد ألقاك فى حسناء هيفاء ، فتندفع حمياك فى رأسى ، وتملك علىّ نفسى .. وتؤجج حسى .

أفكر فيك فأشعر نحوك بحنين لذيذ .. وأحس فى نفسى سكينة ممتعة .. وأرى فى الحياة شيئاً غير ذلك التكرار الممل ، والسآمة الموحشة ، والفراغ المعتم .

إنى أحس روحك فى الحسناء .. فلا أجدها غريبة عنى ، بل أبصر منها إلف روح وتوأم نفس ، يجمعنى وإياه ود قديم وحب سابق .

وقد تختفى الحسناء من محيط حياتى ، ويغيب عنى طيفها وتزول ذكراها ، ولكنك لا تغيبين ولا تزولين ، فقد أرهف السمع فى سكون الليل .. فأسمعك فى صوت حنون ، يحمله إلىّ النسيم بعد الرقاد ، وأنا مغمض العينين ، شارد الذهن ، مرهف القلب ، وأعرفك فيه فتصيبنى من نبراته نشوة ، ومن ألحانه هزة .. ويكاد الفؤاد يثب للقياك ويهتف لعودتك .

وقد يضيع الصوت بعد ذاك ، ويتبدد مع الريح ، ثم أظل فى شوق إليك ، أبحث عنك فى الوجوه الحسان ، والعيون الساحرة والشفاه المعسولة . وأتصنت عليك فى كل لحن شجى ونغم شهى ، وأتنسم ريحك فى كل عبير فياح وعطر ذكىّ ، حتى أهتدى إليك فى قلب مرهف أو روح شاعرة .

إنك تتنقلين من صورة إلى أخرى .. ومن فاتنة إلى فاتنة ، ولكنك لا تتخلين عنى قط ، فما مرت بى لحظة من لحظات العمر .. تركتنى فيها خالى القلب خاوى الفؤاد بلا حب يملأ علىّ فراغ الحياة .

وعندما أذكر الحب .. أعنى به .. ذلك الحب الذى يشملنا ويغير المرئيات فى نفوسنا .. فيخلع عليها جمالاً ليس فيها .. ذلك الحب المجنون الذى نستعذب فيه الألم ، ونستلذ العذاب .. الذى يجعل القلب يدق لصوت دون غيره من ملايين الأصوات .. والفؤاد يرجف من صورة دون غيرها من ملايين الصور .

ذلك الحب الذى يجعلنا نحصر تفكيرنا فى خيال جميل لا نكاد نبصر فى الخليقة سواه ، أو نحس غيره .

إنى لم أعدم فى حياتى لحظة واحدة .. ذلك الحب الذى يحمل الحياة فى نفوسنا .

إنى لم أعدم قط .. الملهمة المجهولة .

أجل أيتها الملهمة .

إنى قد أراك .. فى ذوائب مسترسلة ، أو فى لحن جميل .. أو فى رسالة شاعرية .

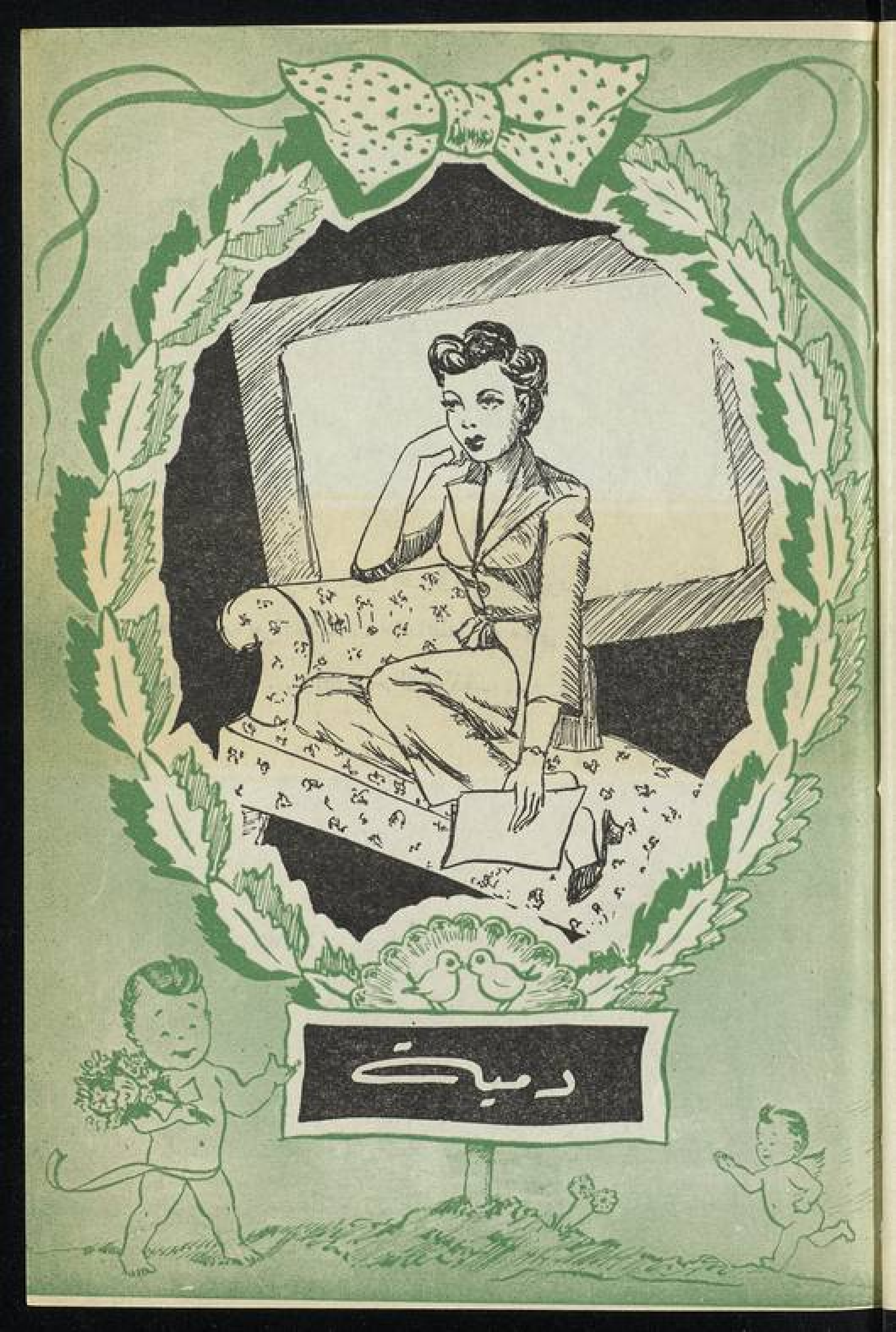
أنت دائماً تهتفين بى ، من قريب أو بعيد .. قد أراك ، وقد لا أراك .. قد أتحدث إليك وأتحسس كيانك وأمس شفتيك وأشم أنفاسك ، وقد أرنو إليك من على بعد فى حنين ولهفة .. دون أن تشعرى بى أو تحسى وجودى .

ولكن .. وصلت .. أم هجرت .. دنوت أم نأيت .

أنت دائماً كائنة فى الذهن ساكنة فى الفؤاد .

تحركين القلم .. وتنضرين الورق .. ولولاك يا حلوة الروح .. لجف النبع ونضب المعين .. ولما جاشت الروح فى الأسطر .. وتنفست الكلمات .

يوسف السباعى


دين

ماظننت أن نورك الذى سحرنى . . هو نور قلبى الذى انعكس عليك . فأبداك ساحرة مضيئة . . حتى انطفأ ضوء قلبى . . أو تحول عنك . . فإذا بك خابية مظلمة . . وإذا بسحرك قد ذهب . . وإذا بك دمية كغيرك من الدمى .

أمسكت الفتاة بالرسالة وفضتها ببطء وبدأت القراءة :

عزيزتى :

هل يدهشك أن أكتب إليك ؟

أنا نفسى فى دهش شديد ، فما دار بخلدى أن أكتب إليكِ فى يوم ما ، وما كنت لأدرى وأنا أمسك القلم لأكتب إليكَ . . لم أكتب ؟ وماذا أكتب ؟

ماذا أكتب . ؟ وأنا ما كتبت إلى امرأة من قبل !

لقد كتبت كثيراً عن النساء ، وكتبت عنك ضمن من كتبت .

كتبت عنكِ فى زمن مضى . . عندما كنت لا أستطيع أن أكتب إلا عنَك .

وكيف أكتب عن سواك ، والذهن قد خلا إلا منك . كيف أكتب عن سواك ، وقد كانت نفسك ملء نفسى ؟ وصورتك ملء ناظرى ، وصوتك ملء أذنى . كان القلم يقف على الورقة فى جمود وحزن واكتئاب . . فلا يكاد يمر بنا طيفك حتى تصيبه هزّة ، وإذا به قد شدا وترنم . . وغنى ورقص . . وسطر على الورق أنغاماً وألحاناً .

هل تعرفين المصوّر العاشق الذى لا تجرى ريشته

إلا بصورة صاحبته.. والذى لا يمل من أن يقضى عمره فى رسمها؟ كذلك كنت.. وكذلك كان القلم.. كلانا عاجز عن كل شىء، إلا عن الكتابة عنك.

لهذا كنت أكتب عنك.. فى زمن خلا.. زمن كنا فيه نفساً واحدة.. وكان كل منا يحس أن لا غنى لأحدنا عن صاحبه.. ولا عيش له بدونه.

ترى لِمَ أكتب إليك الآن. وقد تبدد ما بيننا وتفرّق؟ لِمَ أكتب إليك وقد أضحينا:

كلانا غنى عن أخيه حياته

ونحن إذا متنا أشد تغانيــا

إنى واثق أننى لم أكتب إليك لأقول أنى أحبك.. لسبب واحد.. وهو أنى لم أعد أحبك.

هل أكتب إليكِ لأقول أنى لا أحبك؟

لا.. أظن.. فإن من الحق أن يكتب إنسان لآخر.. لا لشىء إلا ليخبره أنه لا يحبه.. ولو كان الأمر كذلك لتحتم علىّ أن أكتب للملايين غيرك الذين لا أحبهم.. لأبلغهم أنى لا أحبهم!

لِمَ إذن أكتب إليك؟

أتريدين الحق..؟ إنها نكسة.

هل تذكرين ما قلته لك عن الحب ، وأنه يصيب الإنسان كما يصيبه البرد .. وأنه يأتيه من حيث لا يدرى .. فيبدأ زكاماً بسيطاً .. ثم نزلة شعبية ، ثم التهاباً رئوياً يتركه صريعاً محموماً ؟

كذا بدأ معى حبك .. وتركنى صريعاً محموماً .. حتى منّ الله علىّ بالشفاء .. فبرئت من حبك وأنقذت من نيرك وأطلقت من إسارك .. وفررت بنفسى عن دائرة نفوذك وسلطانك ، وأضحيت حراً طليقاً .. وانطلقت أنعم ببدائع الله من زهر وعيون وشفاه .. وأتسلى عنك بغيرك من بنات حواء ، وتلاشت صورتك فى قلبى وأخذت ذكراك تضمحل فى رأسى حتى لتكاد تمحى .. وأكاد أنساك .. لولا حنين يعاودنى فينكأ الجرح بعدما برىء ، ويثير الذكرى بعدما هجعت .. فإذا بى يا صاحبتى أصاب بنكسة ..

تلك هى سبب كتابتى !!

* * *

ترى من كان السبب فى كل ما حدث ؟ أنا .. ؟ أم أنت .؟ أم الظروف الحمقاء الهوجاء .. الساخرة العابثة .. التى أبت إلا أن تمهد للقائنا خير تمهيد ؟

من ناحيتى أنا .. لا أشك أن الظروف قد أحكمت إعدادى للقائك .. وأعدت مشاعرى وتفكيرى إعداداً

متقناً لاستقبالك ومواجهتك .. فلم تدفع بك فى طريق إلا بعد أن أرهفت حسى .. وهيأت نفسى .. بحيث يخيّل إلىّ أننى لم أكن أصلح ، وقتذاك ، إلا لشىء واحد هو لقاؤك ؟

أجل .. إن الظروف الحمقاء هى المسئولة عن كل ماحدث ، فقد أحكمت لقائى بك فى اللحظة المضبوطة .. ولو التقيت بك قبل أو بعد اللحظة التى التقينا فيها .. لما خدعتنى أوهام الذهن وأضواء القلب ، ولما رأيت فيك أكثر من حقيقتك . دمية تافهة !!

هل تذكرين رواية عرضت على الشاشة البيضاء .. بعنوان « انترميزو » أو « فترة راحة » ؟ .. لقد كانت تلك الرواية .. هى أحبولة القدر لإيقاعى فى شراكك .. ووسيلة الظروف الخرقاء التى أعدتنى بها للقائك .

كان موضوع الرواية يتلخص فى أن بطلها وهو موسيقى فنان ذو زوجة وابنة ، يلتقى بمدرّسة البيانو التى تقوم بتعليم ابنته .. وينسج الهوى شباكه حولها .. فإذا بكليهما متدله حباً بالآخر .. وتتأجج بينهما نيران الحب . وتجد الفتاة نفسها مندفعة فى حب يائس .. حب رجل ذى زوجة وابنة .. حب قد يدمر حياته وحياتها .. فتحاول أن تكبت حبها .. وتفر من طريقه .. ولكنه يتعلق بها .. ويفر الاثنان ،

ويهجر الرجل بيته وامرأته وابنته . . لينعم بحبه . . ويخلو العاشقان فى وكرهما الجديد . . نموذجاً للهوى الجارف . . والحب المتأجج ، وتستمر حياتهما هانئة سعيدة ، حياة مثالية لعاشقين . . حتى يزورهما ذات يوم صديق قديم فيخلو إليها ويطلب منها أن تترك الرجل يعود إلى بيته رحمة به وبزوجته وابنته .

وتفكر الفتاة العاشقة الوالهة . . كيف تترك صاحبها وكيف تجسر على فراقه . . ثم ينتهى الأمر بها إلى قبول التضحية . . وإلى أن تقنع نفسها أنها دخيلة فى حياة الرجل . . وأن دورها بالنسبة له ليس إلا دور عابر . وأن ما قضاه معها ليس إلا فترة راحة استجم فيها من عناء حياته . . وأن عليها بعد ذلك أن تعيده إلى طريقه الأصلى ، وتنصرف عنه حاملة حبها المستعر فى حناياها .

وهكذا تفر الفتاة دون أن تبيح لنفسها حتى فرصة توديعه . . خشية أن تضعف ... ويتلقى الرجل الصدمة ، ثم يعود إلى امرأته . . وفى عودته يجد ابنته قد أصيبت فى حادث تصادم ، فيحملها ويذهب إلى الدار . . ثم يستقر به المقام بعد ذلك فى بيته ، وتشفى ابنته ، وتعود حياته إلى مجراها الطبيعى .

تلك هى القصة التى سلطتها علىّ الظروف . . لتعدنى

بواسطتها للقائك . . وقد تكون القصة عادية . . وقد تكون غير ذات أثر كبير فى نفس غيرى ممن شاهدوها ، أما فى نفسى أنا فقد كان لها أثر وأى أثر ! !

لقد أبكانى من الرواية موقف واحد . . هو موقف الفتاة العاشقة بعد أن قبلت التضحية . . وتركت الرجل وقد كبتت لوعتها فى فؤادها ، ولم تمنح نفسها حتى فرصة وداعه .

قد يكون بكائى حمقاً . . ولكن من منا لا يخلو من الحمق ؟

وانطلقت بعد مشاهدتى الرواية . . وقد أرهف حسى وهاجت مشاعرى . . فلقيتك أنت .

أجل لقد هيأتنى الظروف ، وأحكمت إعدادى . . ثم دفعت بك إلىّ .

وكان بك شبه شديد بالفتاة التى أبكتنى واستولت على مشاعرى . . أو هكذا خيّل إلىّ الوهم . . وكان بى أيضاً شبه بالرجل العاشق . . فقد كان فناناً ذا زوجة ، وابنة . . وكنت كذلك .

وتعاون علىّ الشباب ، والسحر ، والقلب المضىء ، والذهن المنطلق فى بيداء الخيال المحلق فى سماء الوهم . . فأرانى التراب تبراً ، والشوك زهراً ، والرماد جمراً ، والماء القراح راحاً وخمراً .

وأنتِ . . ؟ أنتِ أيتها البرّاقة الخادعة . . ما ظننت قط أن بريقك بريق زيف . . وأن ضوءك يشع من سطحك لا من قلبك . . ما ظننت أن نورك الذى سحرنى . . هو نور قلبي الذى انعكس عليك . . فأبداكِ ساحرة مضيئة . . حتى انطفأ ضوء قلبي . . أو تحوّل عنك فإذا بك خابية مظلمة . . وإذا بسحرك قد ذهب . . وإذا بكِ دمية كغيرك من الدمى .

وأنا . . ؟ المصاب بقلب دائم اليقظة ، دائم اللهفة . . قلب فنان . . لا يكف عن العشق لحظة . . لا يستطيع أن يحيا إلا فى جو من الشوق والحنين . . ولا يتنفس إلا هواء مشبعاً بالحب الجنونى المتلهف . . فهو يجد عنصر الحب ألزم له من عنصر الأكسجين . . وإذا لم يجد من يهيء له الحب ، صنع له من الوهم حبيباً .

كيف كنت أستطيع وقتذاك أن أقنع نفسى بأنك لست جادة فى حبي . . وأنت تسيرين إلى جوارى يدك فى يدى ، نجوب الطرقات الخالية ، تعصف من حولنا ريح الشتاء ، فأسألك أن نأوى إلى مقر خشية عليك من عصف الريح ، فتنبئني وابتسامة الرضا تعلو شفتيك أن مقرك بجوارى ، وأنك مادمت معى فأنت آمنة من كل شيء ، قريرة بكل شيء ، راضية عن كل شيء ، وأنه ليس أحب إلى نفسك من أن تسيرى بجوارى حتى آخر العمر .

كيف لا أندفع فى حبك ، وقد كنت أتوهم البراءة والإخلاص فى كل لفتة لك ولمحة . . أمسك يديك وأنظر إلى عينيك فألمح فيهما أشعة طهر تجعلنى آبى إلا أن أشبهك بالملائكة وأربأ بك أن أقارنك بغيرك من أبناء آدم .

كيف لا أندفع فى حبك ، وأنا أسمع همساتك فى أذنى كأنها السحر تهتف بى أنك حائرة . . فى أمرك وأمرى ، تتمنين أن تلقينى فى كل لحظة ، ولكنك تخشين على نفسك من كثرة اللقاء . . تخشين أن أملك وأهجرك ، وتحسين من مجرد الفكرة مرارة أليمة ولوعة قاتلة .

كيف كنت أستطيع بعد كل هذا ، إلا أن أندفع فى حبك؟

لقد اندفعت فى حبك . . واندفعت أنت فى حبى . أو هكذا أوهمتنى . . وبدأت القصة التى شاهدتها تتجسم فتصبح حقيقة وأعانى الوهم ، والهوى ، والمظهر الخداع ، على أن أجعل منك مخلوقة طاهرة نقية ، وأن أضعك فى مصاف الآلهة ، وأن أجعل منك ملهمتى ومبعث وحيى .

لقد اندفعت فى حبك حتى خيّل إلىّ أنى أوشك أن أصل إلى فترة الراحة أو «الانترميزو» التى وصل إليها بطل القصة ، ولكنى رأيتك تنثنين فجأة وتقلبين ظهر المجن ، وتبدين على حقيقتك . . زائفة تافهة .

رأيتك على حقيقتك دمية تعبث بها الأيدى وتتسلى الشفاه . . حولاً قلباً لا يستقر لها قرار . . مخدوعة مغرورة . . خلواً من كل ما ظننته بك من جمال النفس ، وسمو الروح . . ليس بك إلا جمال القشور ، وفتنة المظهر . . لا تبغين من دنياك إلا مزيداً من مديح ، ومزيداً من اطراء .

ولا اكتمك أنى صدمت . . وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى . . وأن صدك قد آلمنى وتحوّلك عنى قد أوجع نفسى ، واكتشاف حقيقتك قد عصر قلبي اعتصاراً ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت صدك بصد مثله ، وجمودك بالجمود والهجران . . وصممت على أن أقتلعك من قلبي اقتلاعاً .

وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك ، أو أكاد ، حتى أضحيت بالنسبة إلىّ دمية كغيرك من الدمى .

لا أظننى آسف على لقائك كثيراً ، فلقد خرجت من حبك متعادل الكفتين ، كفة المتعة وكفة الألم . . فبقدر ما أعطيتنى من متعة فى حبك ، حملتنى شقاء فى هجرك ، وألماً فى التجلد على فراقك .

هل علمتِ لِمَ كتبت إليك ؟

مجرد نكسة . . أو حنين ، استعنت بالكتابة على إطفاء

حرقتهما . . شفانا الله منهما ، كما شفانا منك (. . . .)

° ° °

وسقطت الرسالة من يد الفتاة . . وبدا عليها شرود شديد . . وترقرقت فى عينيها دمعتان . . سالتا فى صمت على صفحة وجهها .

وبعد لحظة أمسكت بقلم وورقة وجلست تكتب :

« عزيزى :

لقد أعانتك قدرتك على الكتابة على أن تفرغ كل مافى جوفك . . وعلى أن تستعين بالكتابة — كما تقول — على أن تطفىء حرقة فى نفسك .

ترى ماذا أفعل . . وأنا لا أجيد الكتابة ؟ وبم أستعين على إطفاء حرقتى وبرء جراحى ؟

كل شىء يستطيع المرء احتماله . . إلا أن يتهم ظلماً فلا يملك رد التهمة ؟ سأكتب إليك . . فما أظننى أستطيع أن أحتمل مرارة التهمة . . سأكتب إليك . . فقط . . لأرد التهمة . . ولأقول لك أنى لست بدمية ؟

سأكتب إليك لأقول إنى أحبك . . وأنى لست خدّاعة . ولا تافهة . ولا برّاقة . وأن الضوء يشع من قلبى . . فلا ينفذ إلى سطحى ، وأنى أكبت حبى بين الضلوع ، وأنى أتجلد وأنشد

الصبر ، فلا أستطيع التجلد ولا الصبر ، ولا أستطيع أن أنساك .

سأكتب إليك لأشكرك على نسيانى . ولأقول لك أنى لست حولا قلباً لايستقر لها قرار . . لأننى قد استقر لى قرار عندك . . فما أحببت فى حياتى سواك .

ولكن ما الفائدة ؟ ما الفائدة فى أن أهبك فترة راحة . كما وهبت بطلة القصة حبيبها ؟

من يضمن لى أنى سأكون من قوة الإرادة بحيث أعيدك مرة أخرى إلى بيتك وزوجتك وابنتك ؟ من يدرينى أنى سأستطيع قبول التضحية فأنزع نفسى منك ، وأفر من طريقك ، بعد أن أكون قد استوليت عليك ، واطمأننت إلى جانبك ؟

إنى أستطيع المقاومة الآن ، وأستطيع التضحية بك من أجل بيتك وحياتك الهادئة . ولكنى بعد ذلك قد لا أستطيع أنى أعلم أننى دخيلة فى حياتك ، وأن دورى أمامك ليس إلا دور عابر ، وأننى يجب أن أدفن حبي فى صدرى . . وأنأى بنفسى عنك .

لقد كنت أستطيع أن أهبك فترة راحة ، ولكنى أخشى على نفسى منها . . أخشى أن تضعف مقاومتى فأودى بك من أجل نفسى .

أخشى أن أستمرىء المرعى .. وأستعذب المورد ، فلا أستطيع تركه ، أو الخلاص منه .

أنا ما تمنيت شيئاً قدر أن أبقى إلى جوارك حتى آخر العمر .. ما كنت خادعة فى قولى ولا غرارة ، ولكنى فضلت ألا أكون عبء عليك .. يثقل كاهلك ، وينقض ظهرك .. فضلت أن أترك إلى جوارك ، المخلوقة التى سبقتنى إلى جوارك .. والتى لها عليك من الحق أكثر مما لى عليك .

إنى أحبك ، ولهذا رحمتك من حبي ومن نفسى .

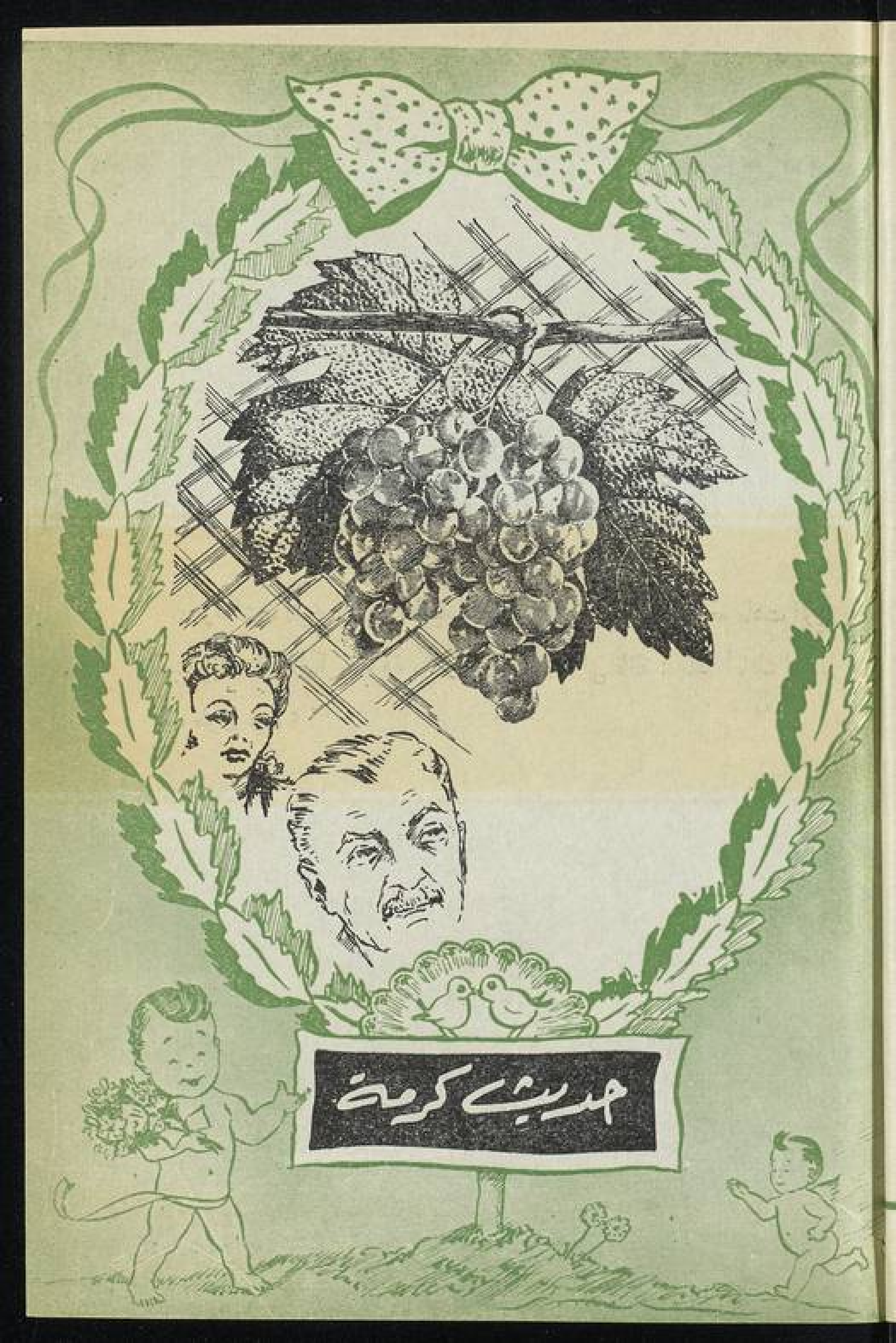
هل علمت أننى لست بدمية ؟

سامحك الله .. !! (....)

وطوت الفتاة الخطاب ووضعته فى الظرف .. ثم شرد بها الذهن .

وبعد لحظة امتدت يدها إلى الخطاب فمزقته إرباً وقذفت به من النافذة وهمست لنفسها :

ــ ما الفائدة ؟ ما الفائدة فى أن أنكأ جرحه وأعيد نكسته ؟ يجب أن أساعده على الشفاء وعلى النسيان .. يجب ألا أرد التهمة .. فخير له ألا يرى فى .. أكثر من دمية !!


حديث كرمة

وسكتت الريح ، فهدأ الحفيف ، وساد الصمت لحظة . . ثم عادت الريح تعبث بأوراق الكرمة برهة . . وكأني بها تسألني قائلة : ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة ؟

أين ولى السرور ، وذهب الغرام ؟

أما السرور فقد اقفر منه المكان . أما أغانى الغرام فقد أضحت أنات حزن وزفرات شجن تبعثها الريح من أطلاله الزائلة ورسومه الحائلة .

قصدت الدار بعد طول نأى . . وساقتنى قدماى إلى ربوعها بعد طول هجران . . ووجدت نفسى أندفع إليها برغبة لا تقاوم . . وبى حنين عجيب إلى أن أوقظ الذكرى الهاجعة وأثير الشجن الكامن .

دفعت الباب الحديدى . . فأرسلت مفاصله صريراً كأنه الأنين . . ودلفت إلى الحديقة الخربة المقفرة ، وقد بدت عليها وحشة القبور . . وخيم سكون مخيف . . لا يشوبه إلا نعيق بوم . . أو نعيب غراب . . أو صوت نافذة تحركها الريح فتحدث بها طرقات منتظمة خافتة . . كأنها دقات الزمن بين الرسوم الدارسة .

كانت الحديقة على ما بها من خراب ووحشة . . ما زالت تحمل آثار عهد باد . . وزمن ولّى وانقضى .. آثاراً لم تستطع كف الخراب أن تمتد إليها . . فبقيت كما هى . . خضراء مورقة . . تهمس فى أذنى بقصة قديمة . . وتدفع فى رأسى

ذكرى خلتها امحت . . وتتلقانى بابتسامة قد تكون باهتة شاحبة . . ولكن فيها لنفسى كثير عزاء .

تلك هى « التكعيبة » ! ! لشد ما هرمت وشاخت . . فتآكلت عروقها . . وتهاوت قوائمها . . وانفصمت عراها . . وأخنى عليها الذى أخنى على لبد .

اقتربت من الكرمة . . وتحسست أوراقها المتدلية فى رفق وحنين . . وهبت الريح فحركت الأوراق ومست إحداها وجهى وشفتى فكأنها تحمل إلىّ تحية الغائب ! . . .

واستقر بى المقام على مقعد خشبى . . طالما ضمنى والصاحب الغائب . . عند ما كنا فى مشرق الحياة ومطلع العمر . . وعندما كنا نعيش على المنى ونطعم بأحاديث الحب الوردى والغزل العطرى .

جلست ، وقد شرد بى الذهن ، وكأن ما انصرم من العمر لم ينصرم . . وكأن الزمن الذى ولى ما ولّى وما ضاع . . وكأن كل شىء قد عاد إلى ما كان عليه . . حتى الحبيب الغائب النائى ، كأنه ما نأى وما غاب ! . . .

لقد حنت علىّ الكرمة العجوز كما قد حنّت من قبل . . وسرى النسيم بين أوراقها فحمل إلى مسمعى حفيفاً كأنه همس

الشفاة . . إن الكرمة تذكرنى كما أذكرها . . وإنها تستعيد لنفسها قصة غابرة . . وكأنى بها تهمس من خلال الحفيف لتروى القصة قائلة :

إنى أعرفك أيها العائد بعد طول نأى . . أعرفك تماما رغم ما فعلت بك الأيام . . أعرفك رغم تثاقل خطاك . . ورغم ذهاب خفتك ومرحك . . أعرفك رغم أنك لم تقبل علىّ قافزاً متوثباً . . ورغم أنك حتى الآن لم تمتط ظهرى ولم تتسلق قوائمى . . ولا قطعت أوراقى ، أو سرقت عناقيدى .

إنى لأذكر أول مرة أبصرتك فيها . . كان ذلك منذ زمن بعيد . . ومع ذلك فإنى أذكره كأنما حدث بالأمس . . وكنت وقتذاك صبياً عابثاً لاهياً . . تقطن فى الدار المجاورة ، وكان الوقت إبان الظهيرة . . والكل رقود فى مضاجعهم . . والسكون سائد . . لا صوت ولا حركة . . حتى « عم فضل » البواب قد آوى إلى حجرته الصغيرة بجوار الباب . . وفجأة أحسست بك تهبط علىّ كأنك شيطان صغير . . بعد أن تسلقت السور الكائن بين الدارين . . ثم قفزت منه إلىّ . . ووقفت برهة تنصت فى حذر وخوف لتتأكد من أنه ليس هناك من يراك أو يحس بك . ووصل إليك شخير « عم فضل » فبعث الطمأنينة فى نفسك ، وأخذت تتسلل فوقى ممعناً فى تمزيق

أوراق فى عجلة ولهفة حتى جمعت منها قدراً كبيراً عبأته فى حجر جلبابك الأبيض . . ثم هممت بالقفز عائداً إلى السور عندما وصل إليك صوت يصرخ بك ضابطاً إياك متلبساً بجريمة سرقة « ورق العنب » .

ونظرت إلى أسفل . . فوجدتها تنظر إليك بعينيها الخضراوين . . وشعرها الذهبي . . وجسدها النحيل . . وقد بدت فى عبوسها كأنها هرة غاضبة .

وترددت برهة . . وتحيّرت فيما تفعل . . هل تقفز هارباً وتتركها تصرخ كما تشاء دون أن تأبه لها ؟ ولكن العاقبة ستكون وخيمة . . فهى تبدو من نوع عنيد وستستمر فى الصراخ حتى توقظ الأهل فيفتضح أمرك .

هل تقذف إليها بالورق لتسكتها وتفوز من الغنيمة بالإياب ؟ خسارة . . هل تهبط إليها ، وترنها علقة ، حتى لا تعود بعد ذلك إلى التدخل فيما لا يعنيها ؟ لا . . . إن هذا سيزيد من صياحها . . ويزيد من سوء المصير ووخامة العاقبة . إذاً فليس هناك خير من أن تحاول التحايل عليها واكتساب صداقتها . . .

ولم يطل بينكما الحديث . . حتى أقنعتها فى نهاية الأمر أنك ستحضر لها من « ورق التوت » ما يعادل « ورق العنب » الذى

سرقته .. وسرّها الأمر، واعتبرتها صفقة رابحة .. إذ كانت في حاجة إلى ورق التوت لتطعم به «دود القز» الذى كان وقتذاك شغلها الشاغل.

ووفيت بوعدك لها ورأيتك تتسلق شجرة التوت الكائنة في حديقتك فتملأ من أوراقها حجرك، ثم تعود به لتسلمه إليها.

وهكذا نشأت بينك وبينها أول علاقة .. علاقة تجارية بحتة .. وعقدت بينك وبينها معاهدة صداقة تقضى بتبادل ورق العنب وورق التوت .. واستمر اللقاء بينكما كل ظهيرة .. في «عز القيالة» .. لإجراء عملية التسليم والتسلم.

وكانت لهفتك على أوراقي تحيرني .. فماذا يمكن أن يفعل صبي مثلك بورق العنب؟. حتى سمعتها تسألك ذات يوم نفس السؤال الذى كان يجول بخاطرى .. ووضح لى الأمر عندما سمعتك تجيبها بأنك تبيعه «لأم أحمد» الطباخة، وتوفر عليها مشوار السوق.

وبدأت أحس نحوكما بعطف عجيب .. وبدأت تسليني أحاديثكما البريئة .. ومناقشاتكما التافهة .. وسرني أن أجد التآلف بينكما يزداد، وأن أرى عرى الصداقة والمحبة تتوثق، فلا يضحى الأمر بينكما مجرد تبادل أوراق ومنافع .. بل إنه

أخذ يتطور حتى أضحى تبادل مشاعر وعواطف . . عواطف رقيقة طاهرة نقية . . تشع من القلوب المضيئة الصافية البيضاء التى لم تشبها شائبة تكلف أو خديعـــة أو رياء . . وبدأتما تتقاسمان عناقيدى حبة حبة . . كأنكما عصفورتان .

وهكذا وجدت الحياة قد سرت منكما إلىّ . . وخيِّل لى أنكما قد أضحيتما قطعة منى . . وأنى لم أعد بالنسبة إليكما مجرد ورق عنب . . بل أضحيت وكراً جميلا آويكما كما تأوى فراخ الطير إلى أوكارها . . .

ولأول مرة أحسست بكره للخريف لأنه يجردنى أوراقى ويتركنى عارية لا أستطيع أن أهيىء لكما المأوى والستر . . وخشيت أن أفقدكما ، وعجبت لنفسى كيف كنت أطيق الحياة بدونكما وكيف استطعت أن أحتمل مللها وسأمتها . . وكيف يمكن أن أقضى الشتاء الطويل دون أن تدفئنى أنفاسكما أو تسلينى أحاديثكما اللطيفة وهمساتكما الممتعة .

وحل الخريف . . فتساقطت عنى الأوراق .. ولكنكما لم تذهبا عنى . . ولم تهجرانى . . بل زادت بينكما هنيهات اللقاء وما حال بينكما وبينى لفح قر ولا عصف ريح .

كيف يحس مثلكما بالقر .. وقلبيكما يشعان بالحرارة ؟! .

ومرّ الخريف ، ومرّ الشتاء . . وأنبتت التوتة أوراقها

وأنبتُّ أوراق . . ولكنكما لم تحاولا تبادل الأوراق . . فما كان لدى أحدكما فرصة فى أن يفكر فى غير صاحبه . وكان كل منكما يجد فى حديث الآخر أقصى متعته .

ومرّ بعد ذلك شتاء . . وآخر . . وآخر . . ونضجتما، ونضج حبكما . . وشاهدت منكما من آيات الحب والوله ما لم تشهده البيد من قيس وليلى . . كنتما تضيئان جوانحى . . وتشيعان النور والسحر فى أرجائى ، حتى لكأنى قد أضحيت وكراً للملائكة . . .

كم تمنيت وقتذاك . لو وقف الزمن فلم يتحرك ، أو لو تحولتما إلى شجرتين متعانقتين تنبتان بجوارى . . حتى لا تتفرق ثلاثتنا . . وحتى لا تحل بنا نهاية . . بل نضحى شيئاً بلا نهاية .

ولكن النهاية حلّت . . .

حلّت فى ليلة سوداء غبراء قاتمة حالكة . . عندما أبصرتها تتقدم إلىّ فى خطوات متثاقلة . . وسيماء حزينة مكتئبة . . وبعد لحظات أقبلت أنت فاتخذت مجلسك بجوارها . . ثم أنبأتك فى صوت باكٍ أن أحد أقربائها الموسرين قد خطبها من أبيها .

وافترقتما ليلتذاك وفى قلبيكما لوعة ، واتفقتما على أن تتقدم أنت لخطبتها . . وأن ترفض هي أن تتزوج سواك . .

ولم أراكما بعد تلك الليلة . . إلا لحظة خاطفة . . لحظة وداع ، كنت أسمع فيها بكاء القلوب ونواح الأفئدة .

ولم أدر ما حدث بعد ذلك ، ولكنى فوجئت بعد بضع أيام بأن أرى أهل الدار على قدم وساق ، وعلقت على البيت الأعلام والزينات ، وصدحت الموسيق ، وتعالت الزغاريد ، وانتشرت الثريات فى الدار ، وانبعثت الأضواء . . فلم يعد هناك فى الدار إلا شيئان مظلمان . . قلبى وقلب صاحبتك .

ووقع بصرى عليها فأدركت أن الكارثة توشك أن تحل وعرفت من ملامحها أنها على وشك أن تزف إلى الرجل الآخر . . .

وأحسست كأن عصارتى قد جفت ، وكأنما قد أمسكت بى يد قاسية شريرة فاقتلعتنى من جذورى ، ولم تستطع الثريات التى وضعت فى أرجائى أن تضىء شيئاً من ظلمة قلبى . . أو ظلمة قلبها . . ومنذ تلك الليلة . . والنكبات أخذت تحل بالدار . . .

مات عائلها فى اليوم التالى بالسكتة القلبية ، وانقلب العرس مأتما . . واستبدل بالزغاريد نواحا وصياحا .

ثم حدثت بضعة أشياء تافهة أوهمت الناس أن الدار مسكونة بالجن . . فتفرّق أهلها وهجرها السكان . . ومرّت

السنون دون أن يقع بصرى إلا على «عم فضل» البواب، وهى كما ترى قفر فى قفر وخراب فوق خراب.

وسكتت الريح، فهدأ الحفيف وساد الصمت لحظة، ثم عادت الريح تعبث بأوراق الكرمة برهة.. وكأنى بها تسألنى قائلة: ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة؟.

ووجدتنى أجيب هامساً:

ـ لقاء عابر أثار الذكرى، وأيقظ الحنين.. كنا نزور بالأمس مريضاً فى أحد المستشفيات، أنا وزوجتى وابنتى الصغيرة.. وجلسنا مع المريض فترة.. ثم التفت حولى باحثاً عن ابنتى.. فوجدتها بين ذراعى إحدى الممرضات.. وقد احتضنتها فى لهفة مثيرة.. والتفت إلى الممرضة فوجدت فى عينيها عبرات تترقرق، وبدا على سيماها أنها تغالب البكاء ثم مدت يدها فصافحتنى وقالت: إن ابنتى تشبهنى تماما.

وسألتنى زوجتى بعد أن انصرفت الممرضة:

ـ هل تعرفها؟.

فهززت رأسى وأجبت:

ـ أجل أعرفها.

أيتها الكرمة العجوز.. كيف لا أعرفها وقد كانت هى رفيقة الطفولة وحبيبة الصبا؟!.. أصابها القدر فأفقدها

الزوج والثراء . . وأجبرها أن تعمل لـكى تعيش .

هل عرفتى . . ماذا أعادنى إليك . . بعد طول غيبة ؟ .

ولم تجب الـكرمة . . بل أجابنى صوت حنون رقيق :

— أجل . . .

وتلفت خلفى . . فوجدتها . . هى . . .

لاتظنوا سوءاً . . فقد جلسنا برهة تحت الـكرمة الحنون .

ثم افترقنا . . فلم أرها منذ ذاك الحين ! ! .




هذه الرغبة..

هــذه الربوة كانت ملعبا لشبابينا وكانت مرتعــا
كم بنينـا من حصاها أربعـا وانثنينـا فمحونا الأربعا
وخططنا فى نقـا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى

شوقى

كم بنينا الأربُع وشيدنا القصور .. وكم غرسنا فيها ورود الأماني وزهور الآمال ، وانثنينا فمحونا الأربُع وهدمنا القصور .. وانثنى الزمن فأودى بالأماني وأذبل الزهور . . .

خططنا فى الرمل .. فما وعى الرمل .. وهبت الريح فمحت ما خططنا .. ويح الرمال والرياح .. لقد أضاعت العهد .. وما أبقت على الود .

ترى ماذا فعلت ريح الزمن بما خط فى القلب ؟

لا أكتمك القول يا صاحبتى ، إن القلب شديد الشبه بالرمال ، وأن الأثر الجديد يمحو من كليهما الأثر القديم .. وأن كليهما سريع التغير والتبدل ، وأن هبة ريح تذهب بما حوى من رسوم وآثار وذكريات ، فيصبح وكأنه صفحة منبسطة خالية ملساء .

ولقد هبت ريح الزمن على رسوم القلب .. وبسطت عليها كف النسيان .. حتى بدا لى أن الرسوم قد امحت .. وأن القلب قد خلا مما به .. وعاد أملس فارغاً .. وخيّل إلىّ أنى قد نسيت ما كان من أمرنا معاً .. وأن غرامك .. كان غرام صيف .. سريع الانقشاع .

هكذا خيّل إليّ يا صاحبتى . حتى احتوانى مرة أخرى مرتعنا السابق . . وملعبنا القديم . . ووجدتنى مرة أخرى فوق الربوة الصخرية ، والرمال المنبسطة فى سيدى بشر .

يا للقلب العجيب . . الذى ظننته خلا . . ويا للرسوم التى خلتها قد امحت . . لكأنى بالزمن ما مر بنا ، ولكأنى بك تجلسين إلى جوارى وقد تلاصق جسدانا . . وأخذنا نرقب الأمواج تتصارع مع صخور الشاطىء . . ويعلو منها الزبد ويتطاير الرشاش ! . .

إنى لأذكر كيف رأيتك أول مرة . . وكنت أقضى الصيف حينذاك مع أخى الذى كان يعمل بالإسكندرية . . وكان يقطن معنا صديق عزيز .

كنا وقتذاك صحبة عجيبة ، حفزنا الشباب وجنونه على أن نغمض عين السخط التى تبدى مساوىء الحياة . . فلم نعد ننظر إليها إلا بعين الرضا الكليلة عن كل عيب . . التى لا تبصر من الحياة إلا الناحية البرّاقة المضيئة .

كنا ثلاثة أقسمنا أن نأخذ من الدنيا أقصى ما نستطيع خلال أشهر الصيف . . وأن نلقى عن كواهلنا كل عبء ، ونركل بأقدامنا كل هم . . وأن نضحك من كل شىء . . فإذا لم نجد شيئاً . . ضحكنا على لاشىء .

كنا نأكل ونضحك .. وننام ونضحك .. ونستحم ونضحك ، ونغازل ونضحك .. ونحب ونضحك .. ونضحك ونضحك حتى نحس أن عضلات وجوهنا قد أنهكها الضحك فنضحك على أنفسنا .. كنا لا نفعل شيئاً إلا بالضحك ... حتى ليخيّل إلىّ أن الأقدار لو أصابتنا وقتذاك بما يبكينا ، لبكينا وضحكنا .

كنا نكسو نفوسنا حللا قشيبة من الأوهام البهيجة الفرحة .. وكنا نعرف كيف نعطيها ما تشتهى ، حتى ولو لم تهيء لنا الأقدار ما نشتهى .

كنا نسمى « الطعمية » كباب ، و « الفول » حمام .. ثم يسأل بعضنا بعضاً : ماذا نتغدى اليوم .. كباب ، والا حمام ؟

فيجيب أحدنا :

ــ كباب .. وحمام .. حد واخد منها حاجه ! !

فإذا ما انتهينا من الغداء صحنا طالبين الحلو قائلين للخادم :

ــ هات الخوخ .

فيهز أحدنا رأسه ويقول :

ــ أنا حاحلى بتفاح .

وبعد برهة يحضر الخادم .. الخوخ والتفاح .. فعلا .. ولكنهما داخل (برطمانى مربى) .. يتناول كل منا

منهما ملعقة . . على المـــاشى ، . . . .

هكذا كنا . . وهكذا كانت الدنيا معنا . . نضحك عليها فتضحك لنـا . . لا هم ولا غم ، ولا حزن ولا أسى .

وحدث ذات صباح والشمس لم تشرق بعد أن أقبل على صاحبي يوقظنى من النوم ، ونحن لم نتعود الاستيقاظ إلا والشمس قد ملأت الحجرة ، فسألته عمـا به فأجابنى :

— قم . . سنجرب حمـام الصباح . . إنه مفيد جداً . . إن اليود موجود فى الصباح بوفرة . . وكذلك الأشعة فوق البنفسجية .

ونظرت إليه حانقاً والنوم ملء عينى :

— يا أخى أبعد عنى . . من قال لك أنى أريد يوداً أو أشعة فوق البنفسجية .

ولـكنه لم يتركنى ولم يغادر الدار إلى الشاطىء . . إلا ويدى فى يده .

وكانت الساعة حينذاك تبلغ السادسة والنصف . . ونسيم الصباح يهب فيملأ النفس نشوة والجسد نشاطاً ، وهبطنا نعدو على الرمال . . وقد بدا الشاطىء خالياً إلا من بضعة أفراد تناثروا هنا وهناك . . ونظر إلىّ صاحبي متسائلا :

— ما رأيك ؟ ؟

ـ مدهش .. إلا من عيب واحد ..

ـ ما هو ؟

ـ قلة الحريم .

ـ بالعكس .. هذا ليس عيباً .. فإن ذلك سيعطينا فرصة العوم والرياضة .

ـ صدقت ..

وقفزنا إلى الماء .. كقنبلتين أو صاروخين .. وأخذنا نسبح بكل ما لدينا من قوة .. حتى وصلنا إلى الصخرة .. وأخذنا فى تسلقها .

واختفى صاحبي خلف إحدى الصخور .. ثم سمعته فجأة يصفر بأصابعه صفيراً متصلا .. فعدوت إليه وأطللت برأسى من فوق الصخرة وسألته عما به فأجاب هامساً وهو يشير بأصبعه وراء إحدى الصخور : « حريم » .

وحمدنا الله الذى لا ينسى عبده .. وبدأنا نتسلل إلى الصخرة التى حملت إلينا الريح من ورائها .. الأصوات النسائية الناعمة .

وفجأة ، وجدنا أنفسنا أمام فتاتين . كانت احداهما أنت !

كيف وجدتك وقتذاك ؟ وكيف كان وقعك فى نفسى ؟ !

لكى تدركى كيف كان وقعك فى نفسى .. أخبرك أننى

كنت – وما زلت – أرى للجمال نموذجاً واحداً .. وأننى كثيراً ما لقيت من الصحاب سخرية شديدة من أجل هذا الرأى ، ومع ذلك فما حدت عنه قط .. وما زلت حتى الآن على استعداد لأن أعشق كل فتاة تنطبق عليها تلك الأوصاف.

كان نموذج الجمال فى نظرى هو الشعر الذهبى الذى يشع الضوء من منابته والذى يتهدل منسكباً كالذهب المنصهر .. والعينان الخضراوان المتألقتان كعيون الهرة .. والأنف الدقيق ، والشفتان الجميلتان اللتان لم يلوثهما أحمر الشفاه بعد .. والجسد الرقيق الذى لا تبدو به ثنية ولا زائدة .

كان هذا هو ما أراه نموذجاً للجمال .. وكان هذا أيضاً هو أنت !!

هل بى من حاجة إلى أن أخبرك كيف كان وقعك فى نفسى حينذاك ؟

وبدأنا المشاغبة .. مشاغبة صبيانية ابتدائية .. وأخذت وصاحبى فى « التلقيح » عليكما وتبادل النكات (البائخة) التى نجحت فى أن تزيد وجهيكما عبوساً وتجهماً ، وفى إرغامكما فى النهاية على ترك الصخرة والفرار من وجهينا .

وقفزتما إلى الماء .. وسبحنا وراءكما فى شبه مطاردة .. حتى عدتما إلى الشاطىء ووقفتما تعبثان فى المياه .. وتوجهت

إلى صاحبي أسأله إن كان قد آن لنا الخروج من الماء .

ومرة واحدة أحسست بكوم من عشب البحر يهبط على رأسي .. وتلفت حولى فلم أجد سواك وصاحبتك .. ووجدتكما تضحكان ، وسمعت صاحبتك تقسم لى أنها ليست هى .. وسمعتك تقولين فى ضحكة خجلى أنك آسفة لأنك لم تكونى تقصدينى .

وللمرة الثانية حمدت الله ، فقد كانت فرصة قلّ أن يجود البحر بمثلها .. ولم أجد طريقة لانتهازها خيراً من أن أمسك بكوم آخر من الأعشاب ثم أقذفك به ضاحكا كأن بيننا سابق مزاح .. أو كأننى أصرّ على أنك كنت تقصدينى .

وهكذا استطعت أن « أجر رجلك » .. أو من يدرى ، ربما كنت أنت التى استطعت أن تجريها .. فقد نشبت بيننا معركة تبادلنا فيها التقاذف بأعشاب البحر .. والتقاذف بالكلمات الناعمة .. والضحكات اللينة ، والعواطف الرقيقة .. ثم انتهت المعركة ، فإذا بالتعارف قد تم ، وإذا بنا قد أصبحنا صديقين .

ومنذ ذلك اليوم .. أضحيت أومن بضرورة اليود والأشعة فوق البنفسجية ، وأضحيت أومن كذلك بأنهما لايتوافران إلا فى الصباح المبكر .. حيث تكونين أنت

تسبحين فى البحر وتستلقين فى الشمس . . .

وبدأ صاحبي يملّ من الاستحمام المبكر . . ولكنى لم أملّ . . بل أخذت آتى إلى البحر وحدى . . لأجدك أنت أيضاً وحدك . . ولنستوى على أريكة الماء والرمل والصخر كأننا قد ملكنا الفضاء . . لاشريك لنا فيه .

واندفعنا فى الحب بسرعة خاطفة . . جعلتنى لا أشك فى أن كلينا نصف متمم لصاحبه . . وأتساءل كيف استطعنا العيش قبل أن نلتق ، وأحس كأنما كنت تائهاً فاهتديت . . وضالاً فأويت .

كان الزمن يعدو بنا وقتذاك ، والساعات تمر كالدقائق . . أما الدقائق فما كنا نحس بها أو ندخلها فى حساب الوقت .

كنت دائماً أذهب فأجدك هناك . . كأنك جنية من جنيات البحر . . فنستلق سوياً على الرمال . . نتناجى ونتهامس ، ونعبث فى الرمال . . ونخطط فيها بيتنا المقبل . . ونرتب الحجرات . . ونرسم التفاصيل والدقائق . . فلا نترك مكاناً لكرسى إلا بيّناه . . شاعرين من ذلك بمتعة عجيبة . . ونشوة هائلة ، كأننا قد تزوجنا فعلا ، وكأننا قد بنينا الأربُع ، وأقمنا القصور .

ما أقدر الذهن على خلق المُتع واللذات . . كانت متعنا

وقتذاك قد خلت من كل شيء ، عدا مرئيات الذهن وأوهامه ، وأمانيه وأحلامه . . كنا بارعين فى تجسيدها . . وكنا لا نملّ قط من الحديث فيها مهما طال الحديث . سقى الله ذاك الزمن ورعاه . . فقد كان كريماً بأوقات النعيم . . كان الحصول على السعادة فيه لايكلفنا أكثر من أن ينظر أحدنا فى وجه صاحبه .

كنا نرقد على الرمل كأننا ملوك الرمل . . ونقفز فى البحر كأننا سادة البحر .

ونسبح برفق ونحن ما زلنا نتناجى ونتحادث ، فقد كان الحديث لاينتهى بيننا قط ، حتى نصل إلى الصخرة ، فأعاونك على تسلقها حتى نصل إلى قمتها ثم نهبط إلى الجانب الآخر ، ونجلس على مقعدنا الصخرى . نرقب الأمواج الثائرة الفائرة ، الصارخة الغاضبة . . يعلو شفتيها الزبد ويتطاير الرذاذ . . لاينتهى لهـا صراع مع الصخر فهما أبداً فى هدير مستمر وثورة دائمـــة .

وهكذا مرّت بنا الأيام حثيثات سراعاً . . لانكاد نحس خلالهـا من دنيانا إلا حلاوة اللقاء ، ومتعة الصبابة ، حتى كان ذات صباح حضرت إلى الشاطىء فلم أجدك ، ومرت الدقائق وأنا أنتظر فى قلق وضيق ، فما عودتنى أن تخلفى موعدك قط .

ولم تأتى فى ذلك اليوم .. ولا اليوم الذى بعده ، وتملكنى حزن شديد وخشيت أن تكون قد ألمت بك علة أقعدتك عن المجىء .. إذ كانت غيبتك مفاجئة لم تنذرينى بها ، وزاد من حزنى أننى لا أستطيع زيارتك .. فما كنت أجسر على ذلك ، وصممت فى نفسى إن لم تحضرى فى اليوم التالى على أن أذهب إلى داركم وأخطبك من أبيك ، فما كنت أستطيع أن احتمل بعدك ، وأنا أعلم أنك تقاسين المرض .

على هذا عقدت النية .. ولكنك لم تعطنى الفرصة ، فقد حضرت فى اليوم التالى ، وأقبلت عليك أشد على يدك فى شوق ولهفة وأسألك عما بك .

وأجبتنى أنه قد ألمّ بك برد خفيف ، ولمحت إذ ذاك فى عينيك آثار سهد وفى وجهك شحوباً وذبولا .

وجلسنا برهة على الرمال ، وقد تملكنا الصمت وخيم علينا السكون ، وطلبت منى أن أستأجر « برسوار » نمتطيه فى الماء ، لأنك لا تودين السباحة .

وهبطنا إلى الماء فوق « البرسوار » .. وكان البحر هادئاً والأمواج تهز القارب الخشبى هزات خفيفة ، وأخذت أدفعه إلى الداخل بالمجذاف بين يدى .

ونظرت إليك فوجدت سحابة حزن مخيمة على وجهك

ورأيتك تملئين صدرك بالهواء ثم ترسلينه زفيراً شديداً كأنك تخرجين من صدرك بعض آلامه .. وسألتك مابك ، فتضاحكت وقلت لاشيء ، وبعد لحظة انقشعت عنك سحابة الحزن وعدت إلى طبيعتك المرحة الضاحكة .

وجاوزنا الصخرة مبتعدين عن الشاطىء إلى عرض البحر وكلما زاد بنا البعد عن الشاطىء زاد بك المرح والسعادة .. وطلبت منى أن أبعد أكثر وأكثر ، وقلت لى إنك تكرهين العودة إلى الشاطىء ، وتودّين الهرب منه ، وتتمنين لو قضيت عمرك فى عرض البحر .

يا لسخرية الزمن وهزء الأقدار .. لقد حققت لك أمنيتك المروعة .. التى بدت لى حين نطقت بها .. أنها هزل وعبث يستحيل تحقيقه .

لقد أمعنا فى الدخول فى عرض البحر ، وازدادت وطأة الموج .. وفى غمضة عين انقلب البرسوار ، وأخذ الموج يدفعه بعيداً عنا .. وأنا أحاول اللحاق به عبثاً .. حتى أصابنى اليأس .

وعدت إليك .. لأعود بك إلى الشاطىء ، فوجدت الوهن قد أصابك ، ووجدت وجهك قد زاد شحوبا .

وبدأت أصارع الموج والقدر ، وأذهلنى أن أسمعك

تهمسين فى أذنى وأنا أحاول حملك إلى الشاطىء . . إنك لا تودين العودة .

أجل . . لقد كنت مصرّة على الهرب من الشاطىء ، وكان بك إلى الموت لهفة وحنين ؟

وانتهى الصراع . . بينى وبين ثلاثتكما : أنت والموج والقدر . . بأن هزمت شرّ هزيمة . . فقد أنالك القدر والموج أمنيتك ، وأحسست أنى أهبط وإياك إلى جوف الماء .

وأفقت أخيراً لأتلفت حولى وأسأل عنك . . وأسمع أننى وحدى الذى نجوت . . فقد استطعت أنت الفرار . . من الشاطىء . . أو من الحياة .

وأغمضت عينى ، وأنا أحس بقلبى يتفتت فى أضلعى ، وحاولت أن أوهم نفسى أن ما حدث لم يكن سوى كابوس مخيف وحلم مروع ، وتمنيت بأن أكون ما زلت فى جوف البحر ، وأن يكون الصراع بينى وبين الموت لم ينته بعد ، وأن يترفق بى فيتركك لى ، أو يأخذنى معك .

ولكنى فتحت عينى مرة أخرى ، لأجد ما أنبئت به حقيقة واقعة ، وأجد أن من العبث أن أخدع نفسى فأتناوم أو أتماوت ، وأنه لم يعد هناك شك فى أنى عدت إلى الشاطىء

من غيرك ، وأن الموت قد سخر منى وأذلنى ، فأخذك منى أخذ عزيز مقتدر .

لقد تمنيت أن تمضى عمرك فى عرض البحر .. وألا تعودى إلى الشاطىء أبداً .

لِمَ لم تشركينى فى أمنيتك ، مادام القدر الغشوم قد أبى إلا أن يحققها لك بمثل هذه السرعة ؟

لِمَ لم تشركينى فى مصيرك ، فنغيب معاً ، أو نعود معا ؟

ومرّت بى الأيام بعد ذاك وأنا أحس بوحشة أليمة وفراغ مرير ، كأنى فقدت صنواً خلق معى ، أو كأنى حطام بلا روح .

وفى ذات يوم التقيت ببعض ذويك فشكرونى على محاولتى إنقاذك ، وأنبأونى واللوعة ملء نفوسهم ، أنك مت « عروسه » فقد أرادوا أن « يكتبوا كتابك » فى نفس اليوم الذى غرقت فيه ، وتملكنى دهش شديد .. وأحسست من قولهم برجفة تسرى فى جسدى .

أترى ذلك كان سبب رغبتك فى الهرب من الشاطىء ، وتمنيك أن تقضى عمرك فى عرض البحر معى .

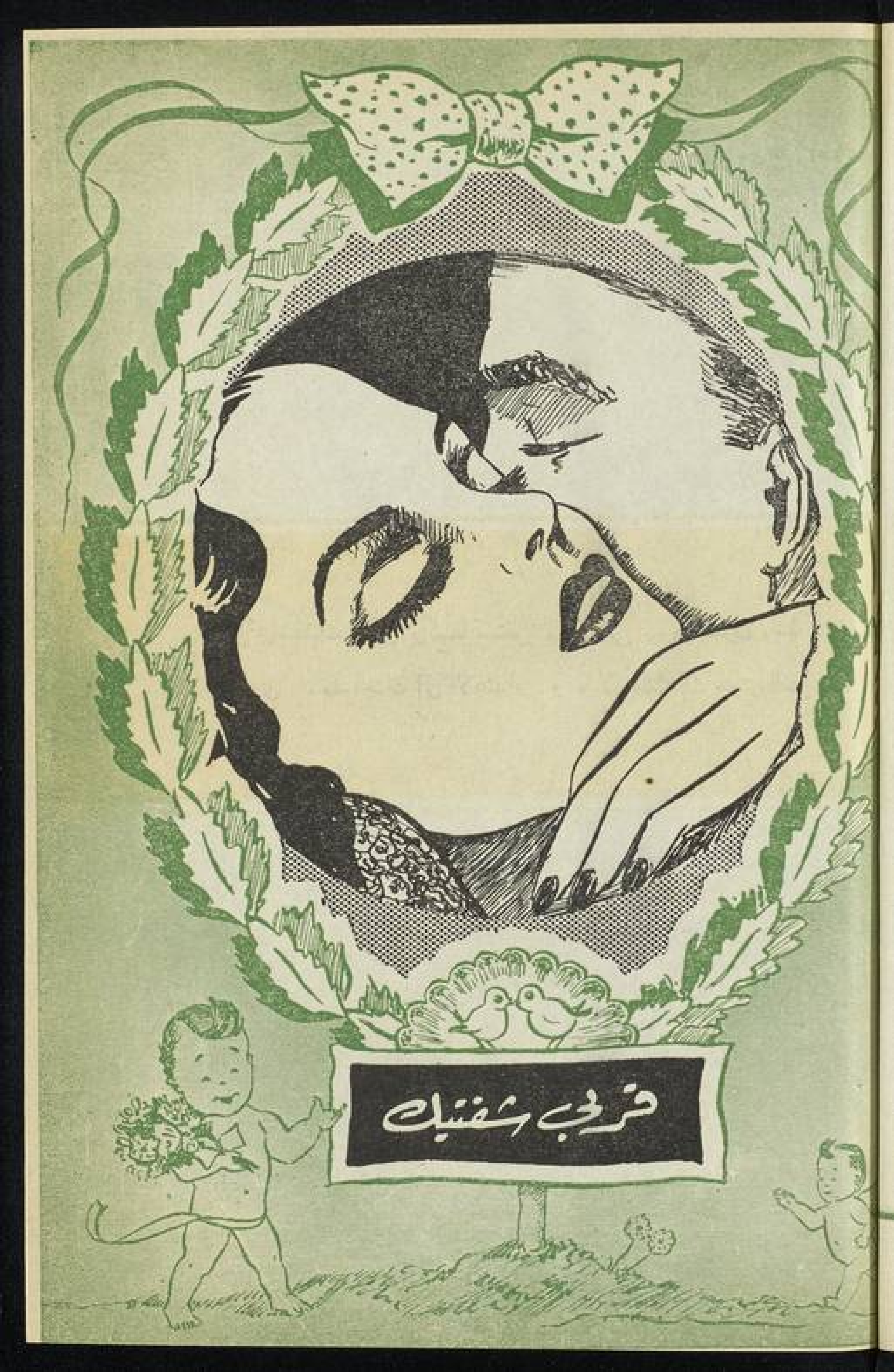
لِمَ حملت كل العبء وحدك ؟ لِمَ لم تذيعينى بما سهدك وأقض

مضجعك ؟ فربما كنت أستطيع أن أفعل شيئاً . ؟ لِمَ هربت وحدك . . أيتها الأنانية الهـــاربة ؟

إن السنين تمر ، ويخيّل إليّ أن ريح السيان قد محت ما بي . . كما محت ريح الشاطىء ما خططناه بالرمال ، حتى تضمني الصخرة مرة أخرى . . فأجلس وحيداً حيث تعوّدنا أن نجلس سوياً ، فإذا بالشوق قد هاج . . وإذا بي أهتف بالربوة :

ما لأحجـــارك صمـــاً كلما
هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعت الصبـــا
فأبت أيامـه أن ترجعـا
قد يهون العمر إلا ساعة
وتهون الأرض إلا موضعا





قربي شفتيك

قرّبي شفتيك . . واتركيهما تستقران على شفتي . . صامتتين ، ساكنتين .

لا تعتذري . . ماحاجتك إلى الاعتذار ، وأنا لا أملك لك سوى الغفران .

منى النفس

.. قرّبي فاكَ من فمي ...

قرّبي شفتيك .. فزادى فيهما وشرابي .

ما فمك .. وما شفتاك ؟ من أى نسيج نسجا ؟ ومن أية مادة صيغتا ؟

من صانعهما ؟ ومن خالقهما ؟ أو خلقهما الذى خلقنا؟ وصاغهما الذى صاغنا ؟

لا تتحدثى . ولن أتحدث .. هاتى شفتيك صامتتين ساكنتين لا أريد منهما همس مناجاة .. ولا رنين قُبَلْ .. أريدهما مطبقتين مضمومتين .. تضغطان على شفتى وتمسانهما فى لين ورفق لا همسة ولا كلمة . إن صمتهما أملأ لنفسى من أعذب الحديث وأجمل المناجاة .

قرّبي شفتيك .. إنى أحس بهما سحراً خفياً .. إنهما تجذبان شفتى .. كأن بهما مغناطيساً لا يمكن مقاومته .

ما بهما ؟ إن عذوبة الكون ومتعة الحياة قد تجمعت فيهما .

نشوة الخمر .. وجمال الزهر .. وعبق الورد .. وحلاوة الشهد .. إنها تطعمنى من جوع ، وترويني من ظمأ .

إنى أحس من مسهما دفء الشمس فى يوم قر .. وهدوء المضجع فى ريح صر . . وحلاوة المذاق فى عيش مرّ . . .

كم نبـا بي المضجع والتهب الفراش . كم راقبت مطلعك بمقلة أذبلها السهر وأرّقها الجوى . . كم أذبت النفس حسرة على هوى ضاع وحب ذوى . . .

كنت أعجب منك ! كيف هُنْتُ لديك فجزيتيني على الحب بغضاء ، وعلى المودة قطيعة . كيف أضعت العهد وما أقمت على الود . . وكيف أصبح كل شىء لديك ذا قيمة إلا أنا .

أيتها الهاجرة . . لا تفتحى شفتيك . . ما حاجتك إلى الاعتذار ، وأنا لا أملك لك سوى الغفران . . ؟ !

لا تفتحى شفتيك . . إنى سأعتذر عنك لنفسى . . فحرام علىّ أن أكلفك مشقة الاعتذار . . صمتـاً . . واتركى شفتيك تستقران على شفتى . . إن فى مسهما خير شفيع لك وغافر لكل ما على الأرض من ذنوب . . !

أنا لا أنسى كما نسيت . . أنا أكثر وفاء بالعهد وإقامة على الود .

أنا مازلت أذكر الهوى الغـــابر . . والحب القديم . . ما زلت أذكر لقاءنا أول مرة فى ذلك الحفل الخيرى الساهر وقد تهاديت بين المدعوين تبيعين لهم الورد .

ما زلت أذكر كيف تعلق بك بصرى .. فما تحوّل عنك لحظة .. وما استطعت أن أبصر فى الحفل سواك .

وسعيت إلى التعرف بك وساعدنى الحظ عندما وجدتك تجلسين بعد أن انتهيت من بيع الورد مع بعض الأصدقاء فتقدمت إليهم وصافحتك مع من صافحت ، وجلست قريباً منك .

وتم بيننا التعارف ليلتذاك ، وتحدثنا بضعة أحاديث عابرة تافهة .. ثم افترقنا فى نهاية الحفل .. ولكن صورتك لم تفارق ذهنى منذ تلك الليلة لحظة واحدة .

وبدأ القدر يدبر لنا اللقاء تلو اللقاء .. حتى بت أومن أنى أساق إليك بإرادة فوق إرادتى .. وأن عرى العلاقة بيننا توثقها يد خفية ...

وإلا فخبرينى ما معنى أن أبقى على قيد الحياة خمسة وعشرين عاماً أسعى فى الأرض بعيداً عنك دون أن تتيح لى الظروف اللقاء بك مرة واحدة خلال تلك المدة الطويلة .. فلا يكاد يحس أحدنا بالآخر ..؟ ولا يكاد يبصر أحدنا للآخر وجهاً .. فكأن كلا منا بالنسبة لصاحبه غير كائن .. فإذا ما لقيتك تلك الليلة .. بدأ اللقاء يتوالى بيننا .. فإذا بى ألقاك فى كل مكان أذهب إليه بمحض المصادفة وبغير قصد منك أو تدبير منى .

أدخل إلى « جروبى » فأصادفك خارجة . . حتى كأن القدر يحكم لحظة خروجك ودخولى .

أفكر فى الذهاب إلى السينما فيستقر بى رأيى على الذهاب إلى سينما مترو . . وأذهب إلى هناك فأجد التذاكر قد نفدت فأتوجه إلى سينما ديانا . . فأجد امرءاً يحاول إرجاع تذكرته فأبتاعها منه . . وأدخل السينما فإذا بك تجلسين بجوارى . . لا . . لا . . هذا منتهى التدبير من الظروف الطائشة .

وهكذا أخذت المصادفات تسخر نفسها لجمعنا . . حتى وثقت بيننا الصلة . . ثم تركتنا ندبر أمرنا .

وكان آخر تدبير لها هو ذلك اللقاء الذى أحكمت نسج خيوطه فى بيت أحد أقاربنا .

التقيت بك هناك مع والدتك وأختك . . وعلمت أن هناك صداقة قوية بينكم وبين أقاربى . . وكنت وقتذاك حديث التخرج من كلية الطب ، وبدأت أتخصص فى الولادة وأمراض النساء .

وجرى الحديث بينى وبينكم سطحياً عابراً . . حتى علمت والدتك بمهنتى فقالت ضاحكة :

— نحن فى حاجة إليك يا دكتور .

وعلمت من والدتك أن أختك الكبرى حامل .. وسألتني أن أتولى العناية بها ، فأجبتها مرحباً . . .

وفارقتكم يومذاك على أن أزوركم من آن لآخر ، لعيادة أختك حتى تحين الولادة .

وبدأت أزوركم فى بيتكم ، زيارة طبيب فى ظاهره .. مريض فى باطنه .. بيــــده حقيبته ، وبقلبه خفقة هوى ورجفة غرام .

كنت أسعى إليك محموماً من فرط الشوق .. وكنت أجد فى تلك الهنيهات التى أخلو فيها بك فى الحديقة أو الشرفة دواء لعلة القلب وداء الفؤاد .. وكنت أصافحك فأستبق كفك بين كفى .. وأنظر فى عينيك صامتــــاً .. فأحس براحة كبرى .

كانت مسة كفك ، ونظرة عينيك ، أشبه بمخدر يسرى فى دمى .. كان صفاء عينيك بعيد الغور ، وكنت أتخيل فيهما نوافذ للجنة أطل منهما على نعيم دائم وسعادة سرمدية .

وأكثرت من زيارتكم ، إلى حد لا يقره عقل ولا منطق . ومن أين آتى بالعقل والمنطق ، وقد أضعت منى الصواب وأطشت العقل ؟؟ وكنت أزوركم يوماً بعد يوم .. ثم كل يوم ، متعللا بعيادة أختك ، وكنت أدرك فيما بيني وبين

نفسى أنها حجة واهية ، وعذر مضحك . . فما كانت أختك فى حال تستحق تلك الزيارات المتكررة ، وما فكرت ذات مرة أن أزور مريضة غيرها بمثل ذلك الإلحاح . . .

وبدأ بيننا التجاوب . . فتخاطبنا بضغط الأيدى ، ثم حديث العيون ، وهمس الشفاه . . وجرى التفاهم بيننا رويداً رويداً ، حتى وجدنا أنفسنا مرة واحدة ، وقد أضحى لكل منا على الآخر حقوق وواجبات ، وبدأت تسألينى إذا تأخرت يوماً عن سبب تأخيرى ، وأين كنت ، وبدأت أنا أطلب منك ألا تفعلى هذا ، وأن تفعلى ذاك .

وهكذا تطور الأمر بالتدريج فإذا بى أتخذ منكم لا موضع الطبيب بل موضع الخطيب ، وأضحى مفهوماً فى أسرتك أن بينى وبينك شبه خطبة . . ولم أعد أجد غضاضة فى زيارتى ، وبدأنا نبنى معاً قصور الأمانى ، حتى جاء يوم انهارت فيه القصور !

بدأ الأمر بجو من الجفاء حيّرنى كنهه . . فما كنت أذكر أنى قد أتيت ما يستحق منكم الجفاء . . ولم أعد ألقاك فى الدار إذا ما ذهبت لزيارتكم وإذا لقيتك فلقاء بلا خلوة . . وإذا خلوت بك فخلوة سريعة صامتة لا تفاهم فيها ولا انسجام .

ولم تطل بي الحيرة حتى علمت بعد بضعة أيام أنك قد زففت إلى أحد الوجهاء الأثرياء .

واضيعة الهوى ! لقد صادف منك تربة جدباء . . فأنبت لى المرارة وأخرج الشوك . واضيعة الحب !! لقد عرضت فى سوقه الخاسر نفسى وروحى وقلبي وكل مابى . . فما جنيت منه سوى الخيبة والخذلان .

يا ويلتا !! لقد جزيت منك على الوفاء غدراً . . وعلى الحب هجراً ، وعلى المودة سوءاً وشرا . . لقد بذرت أملى منك فى مثل الهواء فما جنيت منه سوى العواصف الهوجاء والريح والأنواء . . .

لقد بعت هواى بحفنة من الذهب . . واستبدلت بسمو الروح والمشاعر ضعة المادة فى أرض ملؤها الشرور .

إنى أحبك يا هاجرة . . رغم هجرك وغدرك . . وشر ما فى الحب أن القلب المحب لا يستطيع أن يجاوب غدراً بغدر ولا سوءاً بسوء . . .

« إن الفؤاد يا هاجرة ليتفتت على الهجر . . فلا يزداد إلا ولعاً . . كالمرآة تريك صورتك ثم تتفتت فتريك ألف صورة . . »

وانطويت على نفسى . . أشغلها عنك بتوافه الحياة

واستعنت عليك بالذكرى أجترها فى باطنى لأغذى بها القلب الجائع والنفس المحرومة ، ومرّ بى الزمن وأنا أعيش على الذكرى والأوهام . . فلا أنت واصلة ، ولا أنا سال .

ومرت الأيام وأنا لا أرى منك سوى شبحاً أطوف به ويطوف بى .

لقد كنت أعتبرك رغم نأيك وهجرك . . شيئاً أساسياً فى حياتى . . ولم أشعر قط أنى فقدتك . . فما كان هناك من يستطيع أن يسلبنى إياك . . لقد فقدتك جسداً . . ولكنى لم أفقدك روحاً .

قد تتساءلين ما ذا يمكن أن آمل منك . . وقد تزوجت وأصبحت ملك إنسان آخر ؟. وقد تتساءلين لِمَ لم أتعزى عنك بسواك والنساء كثيرات !

أنا نفسى لا أدرى . . ولكن الذى أستطيع أن أؤكده هو أنى كنت دائماً أحس أنى لم أفقد منك الرجاء . . وإنك ما زلت لى . . وما استطاعت إمرأة غيرك أن تعزينى عنك أو تنسينى إياك .

قد يكون فى ذلك نوع من التعلق بالضائع . . والتشبث بالمفقود . . وقد يكون هناك وحياً خفياً يوحى إلىّ بأنك

لا بد عائدة . . أو قد يكون بك ما لا يمكن لغيرك أن يهبه إياى . . قد يكون كل هذا سبباً جعلنى أنتظر وآمل . . وجعلنى أعيش على ذكراك دون أن أيأس من عودتك . . حتى فوجئت ذات يوم برؤيتك أمام ناظرى . . أنت نفسك لا طيف ولا شبح . . .

نظرت إليك فى دهش شديد ، وكأنى أنظر إلى ألف عام من الفرح ، والحزن ، والأمل ، واليأس ، والفرج ، والضيق ، والراحة ، والعذاب . . تأملتك هنيهة ، فإذا بك كما أنت . . وإذا بقلبي يكاد يخر راكعاً أمامك . . .

كدت أندفع فأحتويك بين ذراعى ، ولكنى كبحت جماح نفسى وحييتك فى شىء من الكلفة ، وسألتك فى أدب عما أستطيع أن أؤديه لك ؟ .

ومضت فترة صمت وأنت تحملقين فى الفراغ الذى بدا من خلال النافذة وقد شرد ذهنك وبدت على وجهك صفرة وفى عينيك ألم ، وقلت هامسة أنك تريدين أن أجرى لك عملية إجهاض .

وأخذت من قولك .. ورفعت حاجبي فى دهشة وتساؤل

ولكنك لم تنظرى إلىّ . . بل تحركت إلى النافذة فلم أبصر سوى ظهرك . . وبدا لى كأنك تقضمين أظافرك . . وإنك فى أزمة نفسية شديدة ، وخيل لى أن فى جسدك رجفة ، وإنك تنتفضين كريشة فى مهب الريح . !

وأحسست اضطراباً شديداً وتظاهرت بالتشاغل فى بعض أدواتى .. ووجدت الأسئلة تتزاحم فى رأسى . والشك يساورنى ويعصف بى . . لِمَ تريدين الإجهاض ؟ . إن زوجك ثرى وهو فى سن يتلهف فيها على الولد ؟ .

وسألتك فى صوت خافت عن عدد شهور الحمل ، فأجبتنى ، وزادت دهشتى فإن المسألة لم تكن هينة ، بل إنها تحتاج إلى عملية خطيرة . . وما كنت أحس من نفسى الجرأة على أن أجرى لك . . أنت . . أية عملية . . مهما خف خطرها . . إنى أخاف عليك مس النسيم . . فكيف بقطع المبضع ؟ .

ومضت فترة وكلانا صامت ، وقلت لك متسائلا لعلى أقنعك بعدم الإجهاض :

— ألا بد من الإجهاض ؟ . . إنها عملية خطرة ؟ ! .

وأطرقت برأسك مجيبة ، وما زال بصرك شارداً من النافذة . . وعدت أسأل :

— هل وافق زوجك على إجرائها ؟ .

ــ زوجى ؟ . . إنه لا يملك الموافقة أو الرفض . . لقد مات . . .

ــ مات !!

ــ أجل . . بعد أن أفلس . . ومات أبى . . وأضحيت وحيدة فى الحياة . . إنى فى حاجة إلى أن أعمل . . ولكنى ـ بذلك العبء فى جوفى ـ لا أستطيع العمل . . إن خير ما تفعل لى هو أن تخلصنى منه . . كيف أربيه ؟ وكيف أحمل عبئه وعبئى . . لا أريد لى إبناً يتيما تشقيه الحياة ، وتذيقه مرارتها . . خلصنى أرجوك . . إفعل لى ذلك الجميل . . من أجل حبنا القديم .

حبنا القديم ! . . واقتربت منك ، واحتويت كفك بين كفى . . ونظرت إلى عينيك ، وقلت هامساً :

ــ إنى لا أجسر . . لا أستطيع . . كيف أجرؤ أن أمسك بمبضعى ؟ إن حبنا القديم . . ما زال فى نفسى جديداً يقظاً دافئاً .

وأطرقت برأسك فى يأس ، وعدت أهمس :

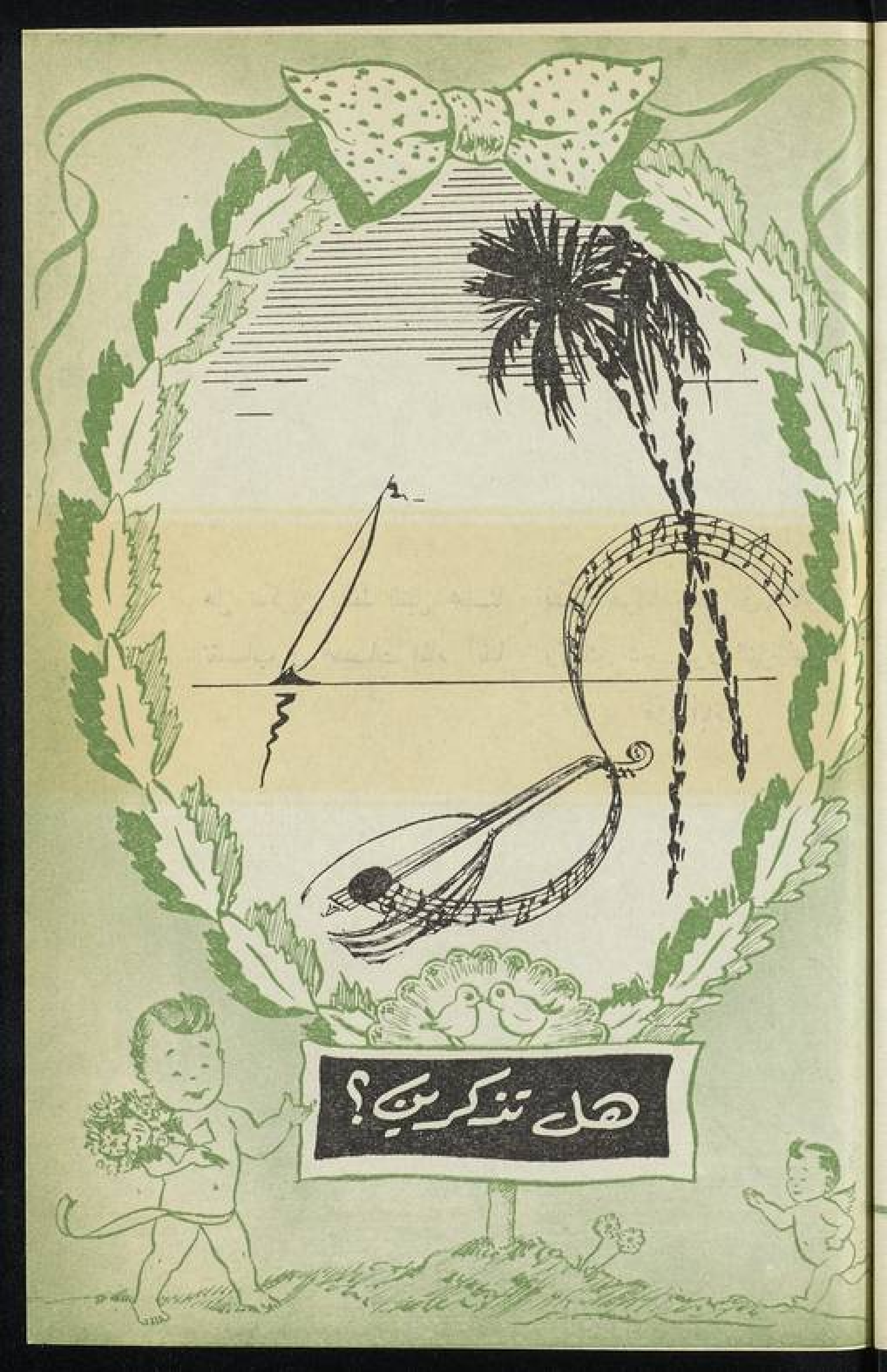
ــ علامَ اليأس . . ؟ إنك لن تحملى عبئه ولا عبئك . . إنى أستطيع أن أحملهما معاً . إن الولد لن يكون يتيما . . ولن تشقيه الحياة . . لأنى أستطيع أن أكون له خير أب . . إنى

أحبك كما أحببتك دائماً وأريدك الآن كما أردتك فى كل وقت . إنى لم أنس كما نسيت أنت .

منى النفس .. قرّبى فاك من فمى ...

قرّبى شفتيك .. واتركيهما تستقران على شفتى .. صامتتين ساكنتين . . لا تقولى أنك أجبرت على الزواج ، وأن زوجك قد أنقذ أباك بأمواله . . لا تعتذرى . . ما حاجتك إلى الاعتذار ، وأنا لا أملك لك سوى الغفران .




هل تذكرين ؟

هل تذكرين بشط النيل مجلسنا   نشكو هوانا ونفنى فى شكاوانا
تنساب فى همسات الماء أنتنا   وتستثير شجـــون النهر نجوانا

عزيز أباظة

قلت لصاحبي وقد جلسنا على شاطىء النيل فى ليلة صيف، رقيقة النسمات، لينة الخفقات، حلوة البسمات.. ليلة يستحق الرثاء فيها من لم يك عاشقاً أو شاعراً أو.. أو مجنوناً.. قلت له غننا لحناً فما أحق هذا الليل الجميل بلحن جميل...

وصمت صاحبي لحظة ثم انطلق يغنى «همسة حائرة»..

وأخذت أصغى إليه.. وقد مسنى من سحر الماء والسماء والغناء ما جعلنى أحس أننى لم أعد آدمياً.. بل شىء أكثر من هذا لا من دم ولحم.. بل من أحاسيس ومشاعر.. تذوب وتتحلل.. وتفنى فى ذلك الجمال العجيب الذى غمرنى وفاض فى نفسى...

وعلا صوت صاحبي يردد وسط السكون الشامل «هل تذكرين بشط النيل مجلسنا؟».. ثم وجدته قد توقف فجأة وحدق فى وجهى وسألنى مستضحكا:

ـ ألا يوحى إليك هذا القول بشىء؟

وشرد بى الذهن وأجبته بصوت حالم:

ـ كيف لا يوحى إلىّ؟.. هذا الهوى على شاطىء النيل الذى أوحى إلى الشاعر أن يقول شعره.. والموسيقار أن

يبدع لحنه . . وللرسام أن يرسم لوحته . . وللمثال أن يصنع تمثاله . . كيف لا يوحى إلىّ بشىء ؟ . . لقد أثار فى كل منهم إحساساً واحداً . . أخرجه كل منهم على طريقته الخاصة . . وعبر عنه بلغته التى يستطيع التعبير بها ، إن الأصل واحد فى نفس كل منهم وإن اختلفت الصورة التى انعكس لنا بها .

— قل بم أوحى إليك ؟ ؟ وما الصورة التى انعكس بها فى نفسك ! . حدثنى يا صاح . . حدث ! ! .

واستغرقت فى الصمت برهة طويلة كان صاحبى يدندن خلالها بصوت خافت . . ثم كف أخيراً عن الغناء وشملنا سكون عميق . . إلى أن بدأت أحدثه قائلا :

— إنى لأبصره على شاطىء النيل . . فى ليلة حالمة كهذه الليلة . . وقد احتضن قيثاره وأغمض عينيه وبدا مستغرقاً فى إغفاءة طويلة . . ليس به من علامات اليقظة إلا أصابعه التى تتحرك ببطء فوق أوتار القيثار لتصدر نغماً شجياً . . وإلا همسة حائرة تشدو بها شفتاه :

« هل تذكرين ؟ ؟ »

تذكر . . أو لا تذكر . . إنه يذكر كل شىء . . إنه ليذكر مجلسهما بشط النيل . . وبغير شط النيل . . إنه يذكر كل شىء له بها أوهى صلة أو أدنى علاقة . إنه يذكر كيف أتى إلى

القاهرة لأول مرة وبنفسه لهفة إلى المدينة الواسعة وإلى ضجيجها وأنوارها.. وكيف هبط إليها فراعه الضجيج وأذهلته الأضواء، وأحس بالحنين إلى بلدته الهادئة وتمنى لو استطاع أن يعود أدراجه.

تذكر حجرة «أم واسيلى» فى أحد شوارع روض الفرج التى كان يقطنها مع طالبين من بلدته.. وتذكر مدرسة شبرا الثانوية، وكيف كان يتكأكأ عليه الطلبة فى «فسحة الظهر» يرجونه أن يغنى لهم.. وما كان هو فى حاجة إلى رجاء.. إذ لم يكن أحب إلى نفسه من الغناء.. ولو لم يغن لهم لغنى لنفسه كما كان يفعل فى كل لحظة من أوقات يقظته.

الموسيقى.. والغناء..!! لقد كان يحس وقتذاك أنهما من ألزم الأشياء له.. بل إنهما ضروريان لحياته ضرورة الماء والهواء.

وتذكر كيف استطاع الحصول على قيثار قديم.. فأصلح أوتاره.. وبدأ يقبع فى أحد أركان الحجرة محركا عليه أصابعه دون سابق معرفة.. وساءه ألا يستطيع أن يجعله ينطق بما يحب.. ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت الأوتار تطيع أنامله، وحتى أحس أن بينه وبين القيثار قديم

ودٍّ وسابق معرفة . . وكأنهما التقيا بعد طول فرقة . . وسرعان ما عرف كل منهما صاحبه .

وبدأ الفتى يصطحب قيثارته إلى كل مكان : إلى المدرسة ليغنى خلال الفسح ، وإلى بيوت أصدقائه يطربهم لمناسبة ولغير مناسبة . . وفى الشوارع ليلا حيث يحلو له التجول مع زملائه . . .

وفى ذات يوم ذهب مع ثلة من أصدقائه إلى روض الفرج للنزهة فى أحد القوارب .. وبينما هو يهم بالهبوط إلى القارب إذ أبصر فتاة مقبلة على الشاطىء . . وسرت بينهما نظرة سريعة خاطفة . . ولكنها كانت كافية لأن تجعل الفتى يتسمر فى مكانه .

كانت الفتاة ، خمرية اللون ، حالكة الشعر .. وكانت عيناها السوداوان مبعث السحر ومكمن الفتنة .

ومنذ ذلك الوقت لم تفارق صورتها ذهنه لحظة واحدة فقد عاد إلى الدار ورأسه ملىء بها . . وفى اليوم التالى كان ينتظرها فى نفس المكان وفى نفس الموعد . . ومرت به عابرة فى طريقها إلى (الكازينو) كما مرت بالأمس .

وعرف الفتى أنها تغنى فى ذلك الملهى ، وتضاعف شغفه بها وازداد حنينه إليها . . وتعود أن يقف خارج السور

فى كل ليلة ليبصرها من خلال فتحاته ، وليشنف أذنيه بسماع صوتها عند ما تعتلى المسرح .

ولم يكن الفتى فى قرارة نفسه براض عن طريقة غنائها .. ولكن صوتها كان يطربه ويشجيه .. وكان يتمنى لو استطاع أن يحملها من المسرح فيفر بها إلى تلك الناحية من الشاطىء التى تعوّد أن يخلو فيها إلى نفسه .. فيغنى لها ، وتغنى له .

وفى ذات ليلة اتفق مع ثلة من أصحابه على دخول ذلك الملهى .. واقتحم الفتية المكان وهم يضجون بالضحك وانتحوا ركناً خالياً ، وقد غمرتهم موجة من السرور .. وأحس الفتى بنشوة من المكان ومن أضوائه ونسائه .. وهو الذى لم يسبق له أن ارتاد مثل هذه الأماكن .. وأخذ ينقب بعينيه عن فتاته .

وطلب الفتية خمراً .. ولم يكن الفتى قد تذوّق طعمها قط ولكن الرفاق تضاحكوا منه .. فاعتراه الخجل وجرع كأسه كما يجرع المريض الدواء .

وازداد ضجيج الفتية وصخبهم .. لا من تأثير الخمر .. بل لمجرد تخيلهم أنهم قد ثملوا .. أو لتنافسهم فى الظهور بمظهر الثمالى .

وخطر لأحدهم أن يطلب إلى الفتى أن يغنى .. لأن غنائه

خير بكثير من ذلك العبث الذى يرونه ويسمعونه على المسرح. واستملح الرفاق الفكرة .. وصاحوا بالفتى يطلبون إليه الغناء وسرعان ماحملوه ووضعوه فوق إحدى المناضد وأصروا على أن يغنى ؟ .. وعلت حمرة الخجل وجهه وتولاه الارتباك .. ولكنه تبين من إصرار رفاقه أنه ليس من الغناء مناص .. فبدأ الغناء .

ودهش الناس فى أول الأمر .. واستنكروا ذلك العمل الأخرق من الفتية الطائشين ، وعلت بضعة أصوات من هنا وهناك تأمرهم بالسكوت وتهددهم بالطرد .. ولكن لم تمض فترة قصيرة .. حتى ساد المكان هدوء .. ووجد القوم أنفسهم ينصتون برغمهم إلى غناء الفتى .. وقد تملكهم الطرب .. وأخذوا يديرون وجوههم من خشبة المسرح إلى ذلك الركن الذى جلس فيه ...

وانتهى من غنائه ونظر إليهم خجلا مرتبكا .. فإذا به يلمح فتاته وقد جلست بجوار رجل بدين أشيب إلى منضدة فى أحد الأركان علتها زجاجات الخمر والكؤوس ، وبدا عليها كثير من الدهش وصوبت إليه نظرة ملؤها الإعجاب وكأن بينهما سابق صداقة ، فأحس بنشوة عجيبة وغمره فيض من الفرح والسعادة ، فعاود الغناء .

رفعت الفتاة كأسها إلى شفتيها وأخذت تحتسيها ببطء وقد تعلق بصرها بالفتى وإلى جوارها جلس الرجل البدين ، وقد انهمك فى ثرثرة لا تنتهى . . دون أن تحاول هى أن تفهم شيئاً مما يقول . كانت ترقب وجه الفتى يفيض بالحياة ويزخر بالمشاعر . . وقد تدلت خصلة من شعره الأسود على جبينه وبدا به سحر يشدها إليه . . ووضع الرجل البدين يده على ذراعها فأحست بفرط ثقلها . . واقترب منها بوجهه فلفحتها أنفاسه الكريهة الساخنة . . ولمحت وجهه المنتفخ الملىء بالمسام والتجاعيد فملأها بغض شديد له . . وأحست بنفسها تثور على هذه الحياة التى تضطرها إلى مجالسة هذه الحيوانات البغيضة . . المنتفخة الجيوب . . بينما تحن إلى من تستطيع أن تهب له نفسها وتحن إلى ذراعين قويتين ووجه فتى تحس منه رغبة متدفقة وعاطفة فياضة فوارة . . فتى تشعر بجواره أنها منه وأنه منها . . فتى ما أشبهه بذلك الفتى الذى يعتلى المنضدة وقد التف حوله رفاقه وهو يكاد يغنى فى أغانيه الحلوة وألحانه الرائعة .

وعلا صوت الفتى يشدو بموال كأنما وضع كلماته وألحانه خصيصاً لها . . ووصلت كلماته إلى أذنى الفتاة وقد صحبتها منه نظرات والهة لهفى . . فأحدثت فيها النغمات والكلمات

والنظرات فعل السحر ، وأحست بنفسها تطير إلى عالم طالما حنّت إليه . . لا تسمع فيه إلا شفاها تردد :

« يا ساكن القلب يا سابي بسحر العين »

« منين أجيب الدوا قول لى أجيبه منين »

وسرت بين الإثنين نظرة . . جمعت كل أحاديث الهوى والصبابة ، نظرة لا يفهمها إلا كل عاشق ، ولّه الحب قلبه ، وأضنى الجوى فؤاده . . ومنذ تلك اللحظة أحس كل منهما أنه لا غنى لأحدهما عن صاحبه . . .

وفى الليلة التالية عاد إليها الفتى وحده فتسللت من الملهى حيث قادها إلى تلك البقعة من الشاطىء التى تعوّد أن يخلو فيها إلى نفسه . . هاربة من الضجيج والأضواء وكؤوس الصهباء . . ومن ذلك الجو الملبد بغيوم الخداع والرياء .

وجلس الإثنان متلاصقين على الشاطىء . . ونظر إلى عينيهـــا السوداوين الصافيتين ، وقد أحاطت بهمـا ظلال الأهداب الطويلة السوداء . . وطلبت منه أن يحدثها عن نفسه ، فاندفع الفتى يتحدث ببساطة عن أحلامه وأمانيه . . وجلست ترقبه . . وتصغى إلى همساته ، وبدا لها وجهه أشبه بوجه طفل صغير . . بتلك الخصلة المترامية على جبينه والتى كان يحـاول رفعهـا بيده من آن لآخر . . ومدت يدها

فاحتوت بينهما يده ، وأحست برجفة تسرى فى جسدها .

وعند ما افترقا . . لم تبارح صورته رأسها . . ببساطته وصراحته وعينيه الرزينتين ونظراته الهادئة . . وكانت تحس أن حياتها لم تعد فارغة جوفاء . . بل تملؤها لهفتها عليه ، ورغبتها فى أن تفنى نفسها فيه .

واستمر لقاؤهما على الشاطىء ، حتى كانت ذات ليلة ، وقد اضطجعت ، ورنت ببصرها إلى النجوم ، بينما جلس الفتى بجوارها ، وقد لف ذراعه حولها ، ورمى بقيثاره فوق العشب الأخضر ، وغمرهما سكون عميق ، وأحس الفتى أنه يهيم فى فردوس من النعيم ، وكأنما يحيا بجسد على التراب ، وروح على هام السحاب . . .

وقطع الصمت همسة من شفتيها تقول « غن لى » . ونظر إليها فلمح فى عينيها بريقاً ناعماً وسحراً عجيباً . . وهمّ بأن يقول شيئاً ، ولكن الكلمات لم تطاوعه ، فأمسك القيثار وبدأ الغناء « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا ؟ . » وأصغت الفتاة إليه ، وقد استلقت على الأرض ، ورنت بعينيها إلى عينيه ، ثم أخذت فى الاقتراب منه حتى أسندت رأسها إلى ساقه ، ومدت يدها فوضعتها برفق على ذراعه .

وانتهى من الغناء . . ووضع القيثار جانباً . . فأحس

بيدها الدافئة تتحسس صدره ، ثم تدفعه ببطء إلى الوراء حتى استلق على الأرض ، وأخذ ينظر إليها وقد انحنت عليه وانساب شعرها الغزير متدفقاً حول وجهها ، وأحس بأصابعها تضغط برفق على كتفه ، ثم أخذت تحدق فى عينيه برهة ، وقد لفتها الظلمة ، فلم يبد له منها إلا شبح وجهها ورأسها ، وقد بدت خلفها السماء الداكنة المرصعة بالنجوم . . ثم أطبقت على شفتيه فى لهفة شديدة ، وشوق جارف .

وظل الفتى راقداً فى شبه استكانة لضمتها الثائرة . . مضطرب النفس . . ولكنها ما لبثت أن رفعت جسدها فى شىء من العنف لتدفن وجهها فى الحشائش ، ثم انفجرت باكية . . واقترب منها ومسها بيده مترفقاً فى شىء من الحياء . . وساد السكون برهة ، ثم قامت الفتاة عائدة أدراجها إلى الملهى .

ثم التقيا بعد ذلك بضع مرات دون أن يحدث بينهما أكثر من الحديث والغناء . . فقد فشلت الفتاة فى أن تثير فى نفسه الرغبة التى تجعلها تفنى فيه ، والتى تشعرها أنها قد أضحت ملكاً له .

ثم مرت بعد ذلك بضعة أيام دون أن يتمكن من لقائها

ولم تعد تخرج إليه من الملهى كما تعوّدت أن تفعل .. وكان يعود إلى داره فى كل مرة ، وقد عصف الشوق بنفسه .. وشعر بحنين شديد إلى حرارة شفتيها .. وإلى يدها تتحسس صدره وتضغط على كتفيه ...

وأخيراً دخل الملهى .. وبحث عنها برهة فوجدها قد جلست إلى منضدة فى ركن المكان .. وقد حف بها بضعة رجال يتقارعون الكؤوس .. وبدت فى وسطهم ، وقد أثملها الشراب .. فأحس بقلبه يخفق فى صدره .. والاضطراب يتملكه .. ولكنه اندفع متجهاً إليها ، ونظرت إليه الفتاة ، ثم مالت برأسها إلى من جلسوا حولها ، وأسرت إليهم بضع كلمات انفجروا على أثرها ضاحكين .

واقترب الفتى منها ، وقد تصاعد الدم حاراً إلى وجهه .. فصاحت به الفتاة ضاحكة عابثة « غن لنا أغنية الفتى الذى لا يعرف كيف يصنع بفتاته » وانطلق القوم من حوله يقهقهون .

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ، وأحس من كلماتها بطعنة أدمت قلبه ، فاستدار فى صمت ، وغادر المكان .

سار فى الطريق مطأطىء الهامة ، قد أثقل اليأس كاهله ، وأنقض الهم ظهره .. وبدت له الأضواء والمارة من خلال

دمع ترقرق فى عينيه كأنها أشباح تتراقص، أو كأنه فى حلم مزعج، أو كابوس مخيف، ووصل إلى مكانه على الشاطىء، وجلس على الحشائش، ودفن وجهه فى كفيه، وعصفت به نوبة من البكاء.

وأحس بعد برهة كأنما غسلت الدموع شيئاً من هم نفسه وأحزان قلبه، فنهض فى تثاقل عائداً إلى داره، وقد أحس بالحنين إلى بلدته، وتمنى لو استطاع أن يفر إليها.

وفى ساعة متأخرة من الليل.. بدأت أضواء الملهى تخبو وأخذ رواده ينصرفون عنه.. وشوهدت الفتاة، وقد جلست فى ناحية مظلمة منه، وقد شرد بها الذهن وبدت فى غمرة من التفكير.. لقد انقشعت من رأسها سحب الخمر، وبدأت تذكر كأنها تتذكر حلماً كيف سخرت من فتاها الحبيب وردته أمام الكلاب الضالة مخذولا محسوراً.. وودت لو استطاعت أن تجثو أمامه باكية مستغفرة، فتغرق بدموعها قدميه.. لقد كانت تحس بأن كل جارحة فيها تحن إليه.. وإلى روحه الجميلة وقلبه النقى.. وإلى صراحته وبساطته.

وعند ما أغلق القوم الملهى افتقدوا الفتاة لكى تعود معهم فلم يجدوها.. ولو أمعنوا البصر فى الظلمة لأبصروا

شبحها يتسلل إلى الشاطىء . . حيث جلست منكمشة تنتظر ، وقد لفتها حلكة الليل . . .

لقد أحست فى مكانها بشىء من العزاء ، وخيل لها أنه قد يعود إليها . . ولكن الساعات مرت وهى غارقة فى حزنها ووحشتها حتى أصابها اليأس ، فعادت أدراجها تترنح ، وقد أنهكها الشراب والتعب والسهر ، ولم تسر بضع خطوات حتى أقبلت فى الظلمة عربة تسابق الريح ، وقد أثمل الشراب سائقها فدهم الفتاة وانطلق فى سبيله .

وفى الليلة التالية أحس الفتى بقدميه تسوقانه إلى حيث تعوّد أن يجلس . . وهناك جلس على الشاطىء واحتضن قيثاره وبدا مستغرقاً فى إغفاءة طويلة . . وتحركت أصابعه ببطء على الأوتار . . وشدت شفتاه بهمسة حائرة . . .

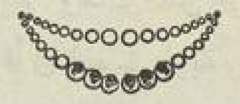
« هل تذكرين بشط النيل مجلسنا ؟ » إن المسكين لا يدرى أنها قد ثوت ببطن الأرض ، وأنها قد أضحت قبراً بقفره . . وأنه سواء لديها الآن أن تذكر . . أم لا تذكر .

ولكنه لم يكد ينتهى من أغنيته الهامسة حتى أحس بشىء يلمس شفتيه لمسة خفيفة كأنه جناح طائر . . وخيل إليه أنه يسمع همسة تحملها نسمات الليل .

« يا حبيبي . . إني لأذكر . . وأذكر . . وأذكر » .

لقد كانت روحها تهيم حوله ، فأشجاها الحنين . وأرسلت إجابتها مع الريح ، فأدت الريح الرسالة .

وأحس الفتى بعد ذلك بالسكينة تملأ قلبه ، وبلوعته تخف ، وبحزنه يغيض .




سلوا الربيع

. . . وأحسست كأن أغصان قلبي التي عصف الخريف بأوراقها ، قد عادت إليها الحياة ، وملأتها المشاعر .

لقد ذهب عني الاتزان ، وتلاشى العقل والحكمة . لا تسألوني عما فعلت ، بل سلوا الربيع . . والهوى . . والشباب .

سلوا الربيع

فهو المسؤول عن كل ما حدث .. وسلوا ساعة من العمر لم ينسها القلب .. وموضعاً من الأرض لم يهجره الفؤاد .

سلوا ذكريات طوتها السنون .. وحنيناً أخمده الزمن . سلوا أوراقاً جفت ، وأغصاناً تجردت .. عصفت بها ريح الخريف وأودى بها قر الشتاء .. سلوها كيف مسها الربيع فسرت فيها الروح وجاشت بالحياة . سلوها .. وسلوا الربيع ، فعند كليهما الخبر اليقين .

كان الوقت قبيل الأصيل وقد انتهيت من الطواف بمعرض الأزهار الذى أقاموه فى حديقة الأورمان .. وخرجت من المعرض أتجوّل فى الحديقة ، وقادتنى قدماى من حيث لا أشعر إلى بقعة نائية ، وعلى مقعد تحت شجرة ضخمة جلست وسبحت ببصرى فى الأفق البعيد .

وشرد بى الذهن متجولا فى أرجاء الماضى .. ينقب فى ذكرياته الغابرة .. وتذكرت جلسات كانت لنا فى سالف الزمن .. حيث كان الربيع ربيعين .. ربيع الزمن وربيع الحياة .

كانت النسمات وقتذاك ترنماً ، وحفيف الأشجار أنغاماً

وألحاناً . . كانت الأزهار تضىء الأرض كما تشرق البسمات في الوجوه الضاحكة .

وأغمضت عيني وبدأت أنشر من طوايا الماضي خواناً حافلاً بالنعيم . . تذكرت كيف لقيتها أول مرة ، منذ سنين خلت وقد وقفت أمام مجموعة من أزهار « السنانير » تتأملها بإعجاب وسمعتها تقول :

ـ مدهشة . . أظن أن هذه المجموعة من أحسن ما بالمعرض .

وتلفت حولي فلم أجد أمام المجموعة سواي . . فلم أشك في أن الحديث موجه إليّ . . فأجبتها ببساطة :

ـ إنها مدهشة فعلا .

وأخذت الفتاة عندما سمعت صوتي ، ونظرت حولها في دهشة ، فأدركت أنها كانت توجه الكلام إلى صاحبة لها انتقلت أمام مجموعة أخرى دون أن تحس بها .

وانتقلت وإياها إلى مجموعة أخرى . . وجرى بيننا الحديث سهلا بسيطاً . . حتى لقيت صاحبتها . . وأخذت أطوف معهما أنحاء المعرض ، وأنا أشرح لهما شرح خبير كأنني أحد مراقبي المعرض . . حتى انتهينا من الطواف . . وافترقنا .

وملكنى الإعجاب بالفتاة فقد وجدت فى وجهها طفولة وبراءة وطهراً ، وفى جسدها نضجاً وامتلاء واستواء .. وجدت فيها نموذجاً للمخلوقة التى طالما تمنيتها .. ولست أدرى كيف تركتها تنصرف دون محاولة أن أعرف شيئاً عنها .. إسمها أو عنوانها ، ولكنى فى الواقع إنسان خجول قليل الخبرة بالنساء .. ولولا أن الحديث بيننا جرى عن الأزهار ولولا أننى شديد الخبرة بكل شىء عنها لما استطعت أن أتحدث معها بكلمة واحدة .

وأصابنى الندم يومئذ ، ولكن الأيام سرعان ما أنستنى إياها .. حتى رأيتها بعد ذلك تسير فى شارع فؤاد .

التقت أبصارنا ، ولم أشك من الابتسامة الخفيفة التى علت ثغرها أنها قد عرفتنى ، ولم أعرف وقتذاك ما أستطيع أن أفعل ، وسرت فى طريقى برهة وأنا حائر متردد ، ثم استقر أمرى على أن أعود لأحدثها .. ولكن عندما أدرت وجهى وحثثت الخطى كانت قد اختفت .

وأبى القدر بعد ذاك إلا أن يدفع بها فى طريقى مرة ثالثة فألفيتها خارجة من إحدى دور السينما ومعها سيدة كبيرة - لعلها أمها - ثم لمحتهما تركبان عربة فخمة .. واستطعت فى تلك المرة ، أن أعلم عنها شيئاً ، فقد عرفت رقم العربة .

ومضت بضعة أيام وأنا أشبه « بقلم مباحث » ، حتى استطعت أخيراً أن أعرف من تكون .. ومن أبوها وأين تقطن .

ولقد أحسست بشيء من الخيبة والخذلان ، وتملكنى خوف من أكون مندفعاً وراء سراب ، فلقد كانت الفتاة ابنة ثرى معروف ليس من السهل الوصول إليه ، ولكننى قلت لنفسى .. إننى شاب فى مستهل الحياة ، وأن المستقبل أمامى زاهر متفتح .. وأنى قد أصبح فى يوم من الأيام مثل أبيها ثروة وخيراً منه ، وماقيمة المال والمكانة التى يرثها المرء ، دون أن يكد فى الحصول عليها ؟!

وهكذا أقنعت نفسى بقيمتى ومكانتى .. وبدأت أندفع فى حب الفتاة ، وكادت المسألة تنتهى إلى لا شيء .. لولا أن القدر قد أبى إلا التدخل فى صالحى فوهبنى من بنات الصدف ماقرّب بينى وبين الفتاة ، وماجعلنى أجزم أنه لابد أن يكون لأحدنا دور فى حياة الآخر .

وبدا لى من مرات اللقاء العابرة التى وهبتنى الظروف إياها .. أن الفتاة تعرفنى جيداً ، وأن مرآى يثير فى نفسها شيئاً من الاضطراب والارتباك .. قد يكون مبادىء حب !!

واستبد بى ، داء الحب ، واستحكمت العلة .. وأنا

إنسان خيالى ، مرهف الحس . . فبدأت أتخذ من دارها كعبة أطوف حولها كل ليلة ، وكدت من فرط الوهم أسمع أنفاسها من وراء الجدر ، وأبصر وجهها المشرق وقد أغفى على الوسادة .

كانت دارها — أو على الأصح قصرها — فى المعادى ، وكنت أستشعر لذة كبرى فى أن أتجه كل مساء إلى محطة باب اللوق . . فأستقل القطار وأجلس بجوار النافذة ، يلفح النسيم وجهى ، وقد شرد بى البصر والذهن . . فى أشباح الأشجار والدور والنخيل ، وفى آفاق الأحلام تتوالى بها صور لمستقبل ممتع سعيد . . صور لقاء ، وقُبَل ، وخطوبة ، وزواج ، وحياة كلها رغد وهناء .

ويقف القطار فى محطة المعادى ، فأهبط منه وقد ملأنى الأمل ، وأفعم نفسى الرجاء . . ثم تحتوينى شوارع الضاحية المتسعة الخالية ، ويضمنى سكونها وصمتها ، وتحملنى قدماى إلى دار السعادة ، دار الحب والنعيم .

كنت أتطلع إلى النوافذ . . فلا أكاد ألمح بها شبحاً يتحرك حتى تعرونى إذ ذاك هزة ، وأنتفض « كعصفور بَلَّلَهُ القطر » . . ولقد يكون الشبح خادماً أو رجلاً ، ولكن ذلك لم يكن يغير فى نفسى شيئاً ، فلقد كنت أراها فى كل ما أرى ،

وأسمع صوتها فى كل ما أسمع ، من همس النسيم ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ، وتغريد الطير .

وفى ذات مساء انتهيت من طوافى وعاد بى القطار إلى القاهرة . . ولم أكد أهبط منه ، حتى لقيتها وجهاً لوجه .

كانت وحيدة ، وكانت رؤيتها مفاجأة شديدة الوقع على نفسى . . فقد كنت أتخيلها منذ نصف ساعة جالسة وراء نافذة الدار ، ولم يكن يخطر ببالى أنى سأراها على قيد خطوات منى .

وتمالكت نفسى . . وحييتها ، فأجابت تحيتى بابتسامة رقيقة . . شجعتنى على أن أتقدم لمصافحتها . . ووقفنا برهة نتحدث .

سألتنى « من أين ؟ » فأجبتها « من المعادى » . وعادت تسأل ضاحكة « وإلى أين ؟ » ، فأجبتها مرة ثانية « إلى المعادى » . واستغرقت فى الضحك وسألت فى سخرية ودهاء :

— هل عينت « كمسارى » قطار ؟

وعلا صفير القطار ، وصعدت إليه ، وقفزت وراءها .

وللمرة الأولى فى تاريخ السكة الحديد ، يقطع قطار المسافة بين القاهرة والمعادى فى بضع ثوان أو فى غمضة عين فإنى لم أحس مرور الزمن ، وهكذا الزمن دائماً ، أسرع فى السراء

من القطاة . . وأبطأ فى الضراء من السلحفاة .

وودعتها حتى باب الدار . . وعدت وأنا أحس أنى لا أسير على قدمى . . بل أطير بأجنحة .

هل هناك سعادة تعادل سعادة عاشق قد استقر قلبه بعد طول تخبط وهيمان .

والتقينا بعد ذلك بضع مرات . . وكان لقاء خاطفاً ، لم يسمح لنا إلا ببضع كلمات .

وأخيراً التقينا . . اللقاء الأكبر . . فى ساعة قد يهون العمر إلا إياها ، وفى بقعة قد تهون الأرض سواها . . هذه البقعة التى أجلس فيها الآن على نفس المقعد ، وتحت نفس الشجرة ، وفى نفس الساعة . . ساعة الأصيل .

الشباب وحده ساحر ، والحب وحده قوة ساحرة . . والربيع ساحر . . وساعة الأصيل ملؤها السحر .

فكيف إذا اجتمع الشباب والحب والربيع فى ساعة أصيل ؟!!

جلست وإياها ، وكأن موضعنا الجنة لا الأرض . . ووضعت كفها بين يدى ونظر كلانا إلى الآخر ، وتناجينا وتحدثنا عن كل شىء . . عن حبنا . . وعن مستقبلنا ، وعن زواجنا ، وعن بيتنا ، وعن أولادنا . . وبنينا من الأوهام

قصوراً شامخات ، وزرعنا من الأحلام حدائق غناء .

وافترقنا أخيراً .. وقد اتفقنا على أن أتقدم لخطبتها .

وتقدمت وبى من الأمل والحب وغرور الشباب .. ماملأ نفسى ثقة .. وأفعم قلبى اطمئناناً .

ولكنى أخفقت !!

فقد رفض أبوها بأدب ولباقة ، معتذراً بأنها مازالت صغيرة وأنه لايود أن يرتبط من الآن ، وأدركت أن قوله ليس سوى عذر ، وأن السبب الحقيقى .. هو أن الثراء يطمع فى الثراء ، والجاه يطمع فى الجـــاه .

ولقد أصابتنى إذ ذاك صدمة .. ولكنى بقيت أتعلق بخيط من الأمل ، وهو أن الفتاة ستثور على أهلها ، وأنها سترغمهم على قبولى .. وستستعمل حقها فى اختيار زوجها .

كنت واثقاً من حبها .. واثقاً من قدرة الحب على فعل المعجزات .. فقد كنت أنا نفسى على استعداد لأن أفعل من أجلها المعجزات .. وأن آت فى سبيلها « بما لم تستطعه الأوائل » .

كنت حسن الظن بالحياة وبالناس .. وكان يخيل إلىّ أنه يكفى أن يحب اثنان بعضهما حتى يستطيعا التغلب على كل صعاب الحياة .

كنت أعتقد أنه لا يمكن أن يحول فى الدنيا حائل بين قلبين متحابين . . وأن من شدهما وثاق الهوى لا تقدر على تفريقهما قوة إلا الموت .

كنت موقناً أنها ستضرب برغبة أهلها عرض الحائط وأنها لن تسمح لأبيها بأن يتحكم فى مصيرها . . ويدمر صرح سعادتها .

ومرت الأيام وأنا حائر قلق . . أتأرجح بين اليأس والأمل . . وبين الخوف والرجاء . . أطوف بدارها فى حلكة الليل فلا ألمح لها طيفاً ولا أبصر لها شبحاً . . وأذهب إلى مكان اللقاء . . الذى تعوّدت أن ألقاها فيه . . علّ الحنين الذى دفعنى إليه يكون قد ساقها إليه . . ولكنى لا أجد فيه سوى الوحشة والفراغ .

وأخيراً وصلتنى منها رسالة . . قطعت خيط الأمل الذى كنت أتعلق به ، ودفعت بى إلى قرارة اليأس .

فقد قالت لى إنها علمت برفض أهلها لى . . وأنها قد ثارت على هذا الرفض وأنبأتهم صراحة – رغم ما وجدته من غضاضة على نفسها – بما بيننا من حب ، وأنها أصرت على ألا تقبل زوجاً سواى . . .

وثار أبوها وبقية أهلها، وهددوها بالطرد والحرمان، وأصرّ أبوها على أن تختار بيني وبينه .

ولقد فكرت طويلا قبل أن تختار .. ثم اختارت أباها . اختارته .. لا لأنها تحبه أكثر مني ، بل لأن حبه أبقى لها على الأيام، وقالت إنها لا تجسر على أن تعصى لأبيها أمراً لأنها تعرف أنه يحبها وأنه رجل عاقل متزن .. ولقد قال لها إن حبنا سيتطاير بعد الزواج وأنها ستكون عبئاً علىّ بحياة الترف التى تعوّدت أن تحياها وأن زواجنا لن يكون فيه أى تكافؤ ، وأن على كل منا أن يحتمل الفرقة حتى ينسى الآخر .

وصدمنى قولها .. وتركتنى رسالتها صريعاً أتخبط فى دياجير اليأس .

كيف تقول هذا ؟ . أين الحب .. وأين الوفاء بالعهد .. والإقامة على الود .. أهكذا هنت عليها .. وهان حبى .. حتى باتت تنظر إليه تلك النظرة المادية .

أبمثل هذه السهولة قد فرطت فى .. وأقنعت نفسها أنها لم تعد فى حاجة إلىّ .

أتبيعنى وحبى بحياة الترف والنعيم .

لقد تملكتنى وقتذاك ثورة جامحة عنيفة .. وأحسست بإيمانى يتبدد .

ولم يكن جنون الحب واندفاع الشباب يجعلانى أفهم معنى لهذا الكلام ، ولم أر منها سوى فتاة مادية لا تعرف معنى الحب وأن أباها رجل أنانى أعماه المال .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وتوالت السنون ، وسار كل منا فى طريقه ، ودفنت حبى بين ضلوعى ، وبرأت من ذلك الجرح الذى سببته لى . . وضربت بيننا أيدى الزمن ، فلم يعد يبصر أحدنا الآخر أو يسمع عنه إلا لماماً ، وتزوجت أنا بفتاة من أقربائى ، وتزوجت هى رجلا من طبقتها الثرية الارستقراطية .

وأقبل علىّ الزمن فوهبنى المال والمكانة . . أو على الأصح باعنى إياها بسنوات طويلة من الكفاح . . لم تبق منى باقية ، سوى جسد واهن ورأس اشتعل شيباً .

وماتت زوجتى بعد أن أنجبت لى ابنة وحيدة وهبتها كل ما بنفسى من حب وحنان ، ولم يعد لى هم فى الحياة سوى إسعادها .

وشبت الإبنة وترعرعت وأصبحت فتاة مكتملة ناضجة كأنها ثمرة حان قطافها . . ولم يكن هناك ما يشغلنى إلا أن أجد لها زوجاً صالحا .

ما أشد ما يتغير الإنسان ويتطور تفكيره وتتبدل نظراته إلى الحياة ! ! لقد ذهب عنى جنون الصبا . . وحق

الشباب . وبت لا أسخر من شيء كسخريتي بالحب ، ولم أعد أعده إلا نوبات من الطيش تصيب الإنسان برهة ثم تذهب عنه ، وأننا لا يجب أن نفكر فى مستقبلنا أو نقدم على عمل يتوقف عليه مصيرنا ونحن فى هذه النوبة . . نوبة الطيش ، أو ما يسمونه الغرام .

واستقر رأيي أخيراً على زوج لابنتي . . كان فى نظرى نموذجاً للزوج ، فهو رجل فى مقتبل العمر لا يزيد عن الخامسة والثلاثين ، عاقل رزين . . من عائلة طيبة وله مركز محترم ومستقبل باهر .

وعرضت أمره على ابنتي بعد أن طلب مني يدها . . فأنبأتني أنها لا تريد الزواج .

ولم أكن من الحمق بحيث لا أدرك أن هناك إنساناً آخر يمنعها من قبول هذا الزوج المثالي .

أجل . . لقد أدركت أنها لابد مصابة بتلك النوبة التي يسمونها بالحب . . وبدأت أستدرجها حتى عرفت حقيقة الأمر ، وعلمت أنها تحب فتى فى السنة النهائية فى الجامعة وأنها تنتظر حتى يتخرج فيتقدم لخطبتها .

ولم أثر عليها لأني رجل هادىء عاقل . . وصممت على أن

أصبر حتى أقنعها باللين والمنطق ، وأن أحولها رويداً رويداً عن هذا الحب الطائش .

وهكذا بدأت أضع الخطط وأحكم التدابير حتى أوجهها إلى الرجل الذى أريده زوجاً لها .

° ° °

مرّ بذهنى كل ذلك وأنا جالس فى مقعدى وقد سبح بصرى فى الأفق البعيد . . أرقب الشمس الغاربة ، ونظرت إلى الساعة فوجدت أن ميعادى مع ابنتى قد أزف . . فقد دعانا الرجل الذى اخترته زوجاً لها إلى تناول الشاى معه فى جروبى وكان هذا ضمن تدبيرى .

ونهضت من مكانى وسرت بضع خطوات فوقع بصرى على منظر كان آخر ما أتوقعه .

لقد وجدت ابنتى متمددة على الحشائش وإلى جوارها فتى حلو التقاطيع جذاب الملامح . . وهما يتهامسان كأجمل ماتهامس عاشقان ، والأزهار متفتحة حولها كأنها قد صنعت لها عشاً طبيعياً يحميهما من عيون الرقباء .

وتذكرت الشباب . . والحب ، والربيع . . وتذكرت ساعة الأصيل . . وتبدد من ذهنى الجمود الذى أصابه ،

وأحسست كأن أغصان قلبي التي عصف الخريف بأوراقها قد عادت إليها الحياة وملأتها المشاعر .

لقد ذهب عني الاتزان وتلاشى العقل والحكمة .

لاتسألوني عما فعلت ، بل سلوا الربيع .. والهوى والشباب .

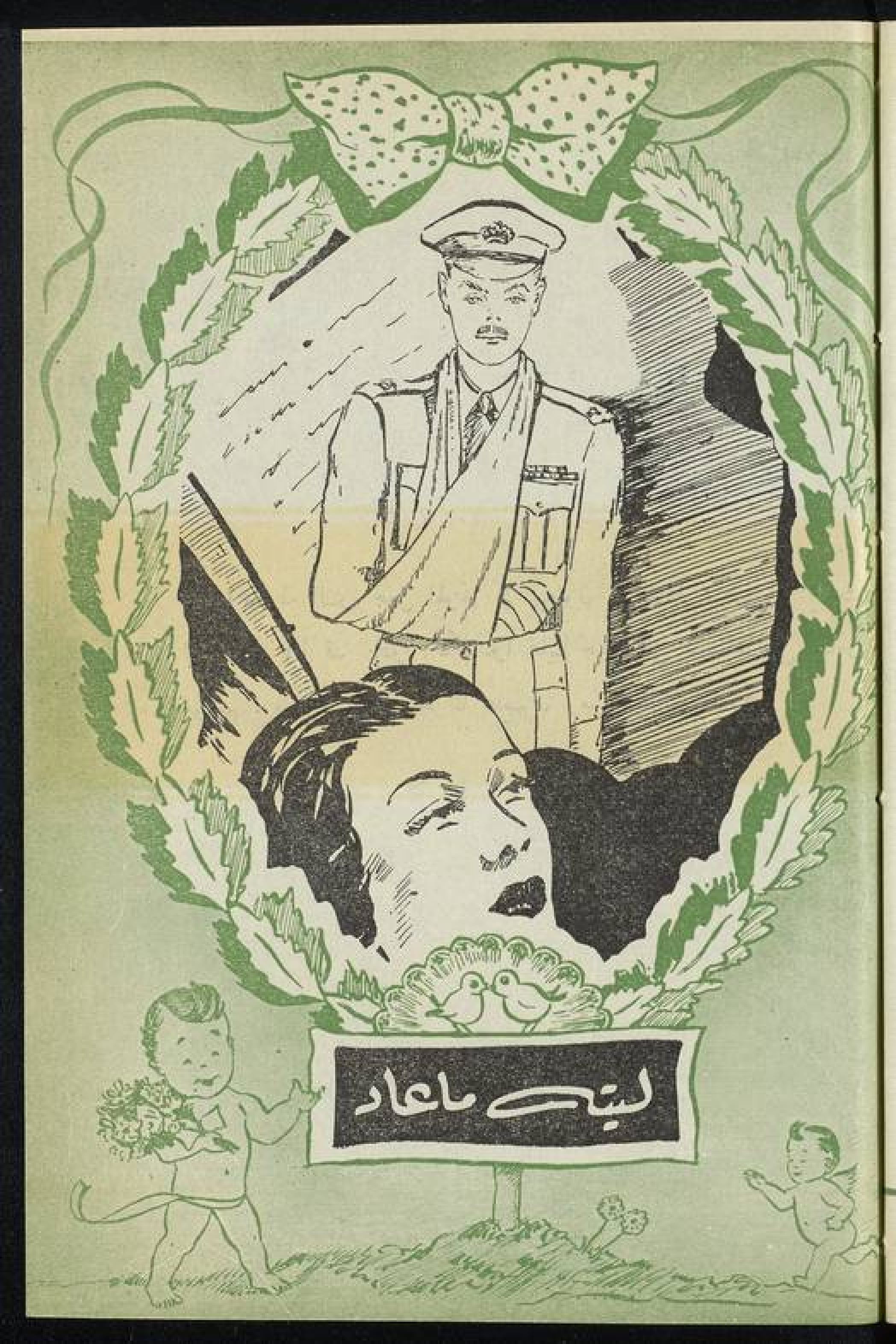
لقد أخذت الفتى والفتاة ودعوتهما إلى الشاى ، وضربت صفحاً عن موعد الزوج الآخر .

وبعد أيام جاء الفتى وأمه لخطبة ابنتي ، ولشدما كان وقع المفاجأة على نفسي ، فلقد كانت أم الفتى .. صاحبتي الأولى .. مات زوجها ، وتبدد الثراء ، وأصبحت من الطبقة المتوسطة ، كما كنت أنا في سالف الزمن ، وسمعت الأم تهمس في أذني :

– ما الذي جعلك ترضى بابني زوجاً لابنتك مع الفارق الذي بينهما . ؟!

فأجبتها مبتسما :

– لأن أباها أكرم من أبيك .


ليته ما عاد

الحمد لله الذى جعل الموتى لا يُبعثون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا قد عادوا ، فأفسدوا علينا حياتنا التى نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا من حزننا عليهم ، ومن زيارتنا لمقابرهم .

لست أدرى . . من أين أبدأ قصتها المليئة الحافلة . . التى أحسست وهى تقصها علىّ بأنى عثرت على صيد قصصى ثمين . . فهى ليست مجرد قصة . . بل مادة يستطيع الكاتب أن يفصل منها مائة قصة . . تكون هى فيها بمثابة القاسم المشترك الأعظم . . ويكون الطرف الآخر أولئك الرجال الذين ألقى بهم القدر فى محيط حياتها .

لن أحاول سرد تاريخها الحافل . . كما قصته علىّ . . فهو شىء يطول سرده . . ولكنى سأنتقى منها قصة أحدهم . . أحد أولئك الذين قاموا بدور البطولة فى قصصها المتعددة . . وقد يكون مبعث اختيارى له دون غيره . . هى تلك الحرارة التى حدثتنى بها عنه . . والحنين الذى بدا لى منها إليه . . فهى تتحدث عنه مغمضة العينين حالمة اللهجة . . قد أرهف فيها الحس وهاجت منها المشاعر .

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أدعها تتحدث إليكم لتروِ لكم قصتها ، أن أقدمها لكم كما أراها . . حتى أوفر عليها مشقة وصف نفسها . . وأريحها من عناء الغرور ومشقة التواضع .

هى امرأة من ذلك النوع من النساء الذى كانوا يسمونه فى عهد الإغريق : طبقة الرفيقات . . ولست أعنى بقولى

هذا إهانة لها . . فقد تبدو هذه الطبقة فى عهدنا هذا . . رغم وجودها فعلا . . طبقة غير معترف بها علانية . . ولا يشرف امرأة أن تعلن الانتساب إليها . . أما فى عهد الإغريق فإننا نجد أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون نظاماً طبيعياً من نظم الحياة الاجتماعية . . فقد كانت الحياة تنقسم إلى طبقتين : طبقة الزوجات الشرعيات اللاتى تحجبهن جدران البيوت . . وطبقة الرفيقات اللاتى يتمتعن بقسط وافر من نعيم الحرية والحياة .

ولم تكن الرفيقات أو الصاحبات (Companions) – كما كنا يسمين فى ذلك العهد – بأقل مكانة لدى الإغريق من طبقة الزوجات ، ولا كان لانتسابهن إلى طبقتهن حطة من كرامتهن . . أو خفض لقدرهن . . وتشويه لسمعتهن . . بل – على النقيض – كن محل تقدير أهل العلم والأدب وموضع إعجاب الفنانين والشعراء ، إذ كنّ فوق جمالهنّ الفياض وأنوثتهن المتدفقة . . مثقفات مهذبات . . ذكيات لبيبات . . محدثات لبقات . . واسعات الاطلاع ، حصلن على قسط وافر من التعليم ، ونهلن الكثير من موارد الشعر والأدب والموسيقى . وكان مقرهن وقتذاك مدينة كورنته . . مدينة الشعر ، والهوى ، والفن ، والجمال . . أو الكعبة التى

يحج إليها الأثرياء ومشاهير الرجال كي يرفهوا عن أنفسهم . . ولم يكن في مرافقتهم للصاحبات انتقاص لقدرهم ، أو خيانة لزوجاتهم ، بل كان أمراً طبيعياً لا غبار عليه . . فقد كانت الزوجات حبيسات الدار واجبهن تهيء بيت هادىء وإنتاج أبناء شرعيين .

هذه كلمة عابرة عن الرفيقات في عهد الإغريق . . قد أبدو في سردها خارجاً عن موضوع القصة . . ولكني أؤكد لكم أني لست كذلك . . فما قصدت بها سوى أن أعطيكم صورة صحيحة للمرأة التي نحن بصددها . . فاستغنيت بوصف الرفيقات عن وصفها . . فإن خير ما تصلح له ، كما سبق القول . . هو أن تكون . . رفيقة . . ولكيلا نهوّن من شأنها ، أو نبخسها حقها . . رفيقة من رفيقات الإغريق .

أول ما يمكن أن يقال عنها . . إنها امرأة . . بكل ماتعنيه كلمة امرأة . . جميلة وجهاً وجسداً . . في بلد ندر فيه جمال الوجه والجسد . . بادية الطيبة ، تستطيع التحكم في مظهرها ، وفي مشاعرها ، رغم أن شيطان المرأة قد يغلبها على أمرها . . فيفقدها كل سلطان لها على نفسها وعلى مشاعرها . . فإذا بها ألعوبة في يده . . أو في يد غيره من الشياطين ، ولست أشك أن شيطان المرأة هذا الذي عجزت أن تكبح جماحه في نفسها

هو الذى صنع منها ما هى عليه . . والذى ملأ تاريخها الحافل بالحوادث والمغامرات ، وأخرجها عن طريقها المعتدل السهل الذى تسلكه كل زوج وأم . . وأثارها على الدار الهادئة . . فدفع بها إلى أن تركب الصعب فى خضم الحياة . . فتتقاذفها الأنواء ، وتدفع بها بين القرارة والقمة ، وتذيقها الكثير من المرارة والكثير من المتع ، وتنهكها ، وتوهنها ما بين إرخاء وجذب ، وبسط وشد . . حتى تصل بها إلى حالة بادية الرضا والاستقرار ، ودرجة من الفوز قد يغبطها عليه غيرها . . وإن كنت أشك كثيراً فى أنها تغبط نفسها عليه .

أقول إنى أكاد أجزم بأن شيطان المرأة هو الذى حاد بها عن الطريق السهل المعبّد ، ودفع بها فى هضاب الحياة ووهادها . . فهى كما قلت : من نوع الرفيقات المنطلقات فى رحاب الحياة ، لا الزوجات المحجوبات وراء الجدر المثقلات بقيود الدار ، ولكنها أنكرت علىّ قولى ، وبرأت شيطان المرأة من كل ما بها ، وألقت العبء كله على الظروف السيئة والقدر الساخر ، أو كما قالت على أول « لا » ؟

دعونا نسمع إليها ، وقد قبعت فى ركن من الأريكة ، وثنت ركبتيها وساقيها ، وانكمشت فى روبها الحريرى ، وأخذت

تنفث من شفتيها ، حلقات من الدخان المتكاثف ، وتقول في صوت حالم :

كانت أول « لا » هي السبب في كل ما حدث .

كنت أعطى كل ما أطلب ، كنت أجاب إلى رغبتى .. حتى قبل أن أقول « أريد » .. كانت « لا » لا تعرف طريقها إلى شفاه من حولى ، بل كانوا لا يملكون لمطالبي ، إلا : نعم وحاضر .. حتى كانت ذات يوم .. صدمتنى منهم « لا » فكانت القاضية .

كنت فتاة مدللة ، لا لمجرد أنى وحيدة أبوىّ .. بل لأننى الوحيدة من بين بنيهما التى غفل عنها الموت فلم يثكلهما فى .. كنت الوحيدة التى أبقى عليها القدر العنيد ، فكنت لديهما كل شيء .

وهكذا تعوّد أبى أن يرضخ لرغباتى ، التى لم تكن تتعدى الرغبات الصبيانية التافهة ، حتى إذا ما بدأت تلك الرغبات تتخذ مظهراً جدياً ، يتوقف عليه مستقبل حياتى ، روعنى منه قوله « لا » .

لست أدرى من كان المخطىء ، ومن الذى كان يجب أن يرضخ لرغبة الآخر ، أنا ، أم هو ؟ ولكننى أعتقد أنى حتى

ولو كنت مخطئة ، فهو المسئول عن خطأى . فقد عوّدنى دائماً أن يرضخ لرغبتى .

كنت ما زلت وقتذاك صبية ، عندما سمعت أنهم سيزوجوننى من ابن عمى ، وكان أبى يرغب ، على حد قوله ، « فى أن يفرح بى » ، ووقع اختياره على ابن أخيه حتى يحتفظ بى فى الدار ، وحتى لا يسبب زواجى فرقة بيننا . . وكان يجد كذلك أنه أحق بى وبماله من الغريب ، وأنه يستطيع أن يعاونه فى أعماله .

كانت هذه كلها مبررات للزواج من وجهة نظره . . أما أنا فلم أكن أجد مبرراً واحداً يدفعنى إلى الزواج ، لا حب ، ولا رغبة ، ولا حتى مجرد استلطاف . . ووجدتنى ببساطة أقول لهم : إنى لن أتزوج .

لقد أبيت الزواج ، وكنت أعتقد أن هذا يكفى جداً لكيلا يتم الزواج . . فقد كانت تلك هى رغبتى ، ورغبتى دائماً مجابة . . إذا قلت لا أريد شيئاً ، فلن يعارضنى فى رفضى أحد .

قلت لن أتزوج ، فقيل لى « لا » . . أبيت ، وبكيت ، وشكوت ، وتمارضت . . فقيل لى « لا » ، ستتزوجينه وأنفك راغم .

ومرت بي الفترة التي سبقت الزواج وأنا أكافح وأناضل أشبه بمحمومة أو مجنونة ، فلقد زادني إصرارهم كرهاً في الزواج ورغبة عنه ، حتى لقد حاولت عدة مرات التخلص من الحياة ، ومع كل ذلك فقد تم الزواج ، اعتقاداً منهم أنني لست سوى طفلة ، وأن رفضي مبعثه طيش زائل ، وأن الأيام كفيلة بأن ترد إليَّ صوابي وتجعلني أنعم بالزواج .

ومرت الأيام لا تحمل في طياتها سوى العجز والفشل .

ماذا تستطيع الأيام فعله ، أزاء هذا الجحيم الذي كنت أحس أنه يلهب حشاى ؟ . وكيف يمكن أن أنعم بالزواج ، وأنا لا أرى في زوجي سوى شيطان مريد ، لا أطيق منه مجرد اللمس ؟ .

كيف ترد الأيام صوابي ، وأنا ما ضمني وإياه فراش الزوجية إلا وأصابني قيء شديد ، من فرط بغضي له ، ونفوري منه ؟ ! .

ماذا تستطيع الأيام أن تفعل أزاء هذا الكره المتغلغل في نفسي .. لقد مضت بي وهي لا تحمل لي إلا المزيد من الملل والحزن والتبرم .. كل يوم يمر يزيدني بغضاً لزوجي ، ورغبة في الانطلاق من إساره ، حتى أصبحت لا أحتمل العبء ، وحتى لم يعد هناك مفر من أحد أمرين : إما أن أظل

أرزح تحته حتى يقضى علىّ ، وإما أن ألقيه من على كاهلى . . وأنطلق من أقرب منفذ يلوح لى .

وتدخل القدر فأبدى لى المنفذ الأول ، أو المرفأ الأول ، أو سمه ما شئت ، فى صورة طبيب شاب يتولى علاجى من داء ألم بى . . ووجدت فيه رقة نفس ، وطيبة خلق . . ولقيت منه حنواً شديداً ، وعطفاً بالغاً ، واهتماماً يفوق كثيراً اهتمام الطبيب كمجرد طبيب .

وأحسست بنفسى تهدأ إلى جواره ، وهبطت حرارة الجسد ، واشتدت حرارة القلب ، وإذا بى أستبدل بحمى الجسد حمى الفؤاد ، وطال المرض ، وطال وجود الشرر بجوار الهشيم ، ولم يكن هناك مفر من أن تشتعل النيران . . نيران آكلة حامية ، وقودها الأفئدة المشتعلة ، والقلوب المستعرة .

وهكذا وقع المحظور ، وحدث ما لم يكن من حدوثه بد ، فما كان فى الإمكان إلا ما كان .

مريضة النفس والجسد ، حبيسة دارٍ هى والجحيم فى نظرها سواء ، أسيرة زوج ، أبغض أعدائها ، أحب إلى نفسها منه . . مقيت كريه . . البعد عنه — كما يقولون — غنيمة ، تلقى بها المقادير ، وهى فى حالتها تلك ، فى طريق طبيب شاب

شفوق رحيم ، مرهف الحس ، رقيق المشـــاعر ، متأجج العاطفة ، يلمس ما بها من علة وما أصابها من داء ، علة نفس وداء جسد ، ويحس ما هي فيه من شقاء وتعاسة ، ويرى فيهـا زهرة جميلة تذبل وتذوى . . وتكاد تتساقط أوراقها ، وتسير فى طريقها إلى الفناء . . فيحاول إنقاذها من علتها ، وشفائها من دائها .

أيمكن أن يلقى بها القدر إلى مصير غير الحب ؟

لا تلمنى . فما أظن هناك مخلوقة مهما قويت إرادتهـا ، واشتدت مقاومتهـا ، تمر بنفس التجربة ، إلا وتندفع إلى نفس المصير .

لا تلمنى ، ولا تلمه ، ولا تلم الشيطان ، ولا النفس الأمارة بالسوء . . فقد كنت أشبه بالسفينة الضالة ، طال بها عصف النوء . . فلما لاح لها أول مرفأ . . ألقت بنفسهـا بين أحضانه .

وهكذا اندفعت وإياه فى هوى عنيف وحب جارف . . لا قبل لأحدنا — ولا لسوانا — على مقاومته ، وعـلامَ المقاوَمة . . ولماذا ؟

إن الإنسان فى هذه الدنيا يحـاول أن يقاوم مثل هذه الاندفاعات . . أو النزوات ، خشية أن تفسد عليه حياته . .

ورغبة منه فى ألا يستبدل متعة طارئة بهدوء مقيم ، وحياة هادئة مستقرة .

أما أنا . . فما فائدة المقاومة ؟

ماذا يمكن أن تخشى مثلى على حياتها المظلمة الفارغة ؟ . ماذا يمكن أن يفسدها أكثر مما هى ؟ .

لقد أقبلت على المتعة الطارئة ، بنهم الجائع المحروم ، الذى لم يذق فى حياته متعة قط ، وأخذت أجرع منها كصاد أوشك أن يهلك ظمأ .

ويبدو لى أننى فى اندفاعى هذا ، لم أعبأ كثيراً بالتستر . ولكن . . هبنى قد حاولت التستر ! . . أمثل هذه الأشياء يمكن سترها ؟ .

لا أظن . . فإن هذا النوع من الحب . . يثير وراءنا عاصفة من الغبار من العبث أن نحاول إخفاءها . . بل إنها قد تخفينا قبل أن نخفيها .

وبدأت الألسن تلوك حديثنا ، ونحن فى بلد يتغذى الناس فيه بالطعام وبسيرة الناس ، فهى تكون عنصراً هاماً فى وجودهم ، فى هتك الستور ونبش الفضائح حياةلهم ومتعة . وهكذا شاع الأمر ، ووجدته قد بدأ يتطور تطوراً خطيراً ، ويكاد ينتهى بكارثة كبرى . . وإذا بالحب الذى

نشدت فيه عزاء عن حياة بغيضة وزواج مقيت ، قد أضحى مبعث شقاء ومورد خوف وقلق ، ووجدت نفسى أوشك أن أدمر حياة من أنقذ حياتى .

ووجدت العبء قد زاد ثقلا ، وأحسست بالحياة لم تعد تطاق . وفى ذات ليلة استقر بى الرأى على أن أركل بقدمى مامضى من حياتى ، وأن ألقى عبئها من على كاهلى ، وأن أنطلق فى الحياة .. هاربة منهم جميعاً .

وهكذا غادرت الدار .. لا أملك فى جيبى إلا دراهم معدودات ودون أن يعلم أحد من أمرى شيئاً ، سوى مخلوقة واحدة .. كانت أبرّ الناس بى وأشدهم حدباً علىّ .. مخلوقة لم يتنكَّر لى قلبها مرة واحدة ، فكانت تحنو علىّ مخطئة أو مصيبة ، مذنبة أو بريئة ، ما رأت لى قط هنات ولا سيئات . بل كانت ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى فى الحلكة الموحشة .. تلك هى أمى .

انطلقت فى الحياة ، لا أحمل سوى بضعة جنيهات .. وبضعة دعوات طيبات .. هاربة من الدار التى لم أفارقها يوماً واحداً .. هاربة من مرتع الصبا ، وملعب الطفولة . هاربة من الماضى بقسوته ومرارته ومتعه ولذاته .. هاربة من كل من كان لى به أدنى علاقة .. علاقة حب أو بغض ،

أو عطف أو حنان ، هاربة من : الزوج ، والأب ، والأبناء ، والحبيب .. هاربة منهم جميعاً .

° ° °

وصمتت محدثتي برهة .. ألقت خلالها بعقب السيجارة من يدها ، ومدت ساقيها لتريحهما من عناء الثني .. وضمت أطراف الروب حول جسدها ، وأزاحت شعرها المتهدل عن وجهها ، وأطلقت من صدرها نفساً طويلا .. ثم عاودت الحديث .

ويبدو لى أن من الخير أن اقتضب حديثها بعد ذاك فإني — كما سبق القول — لا أريد أن أسرد تاريخها الحافل . وهو شيء يطول سرده ، وليس من السهل وضعه فى بضعة صفحات .. ولأنى كذلك لا أريد رسم الظلال والتفاصيل التى قد تلقى الضوء على شخصيتها .. حتى أجنب نفسى ما لا قبَل لها به ، والمسألة كلها — بعد كل هذا — لا تعدو أن تكوَن قصة .

وعلى ذلك فلنمر على حديثها مراً سريعاً ، حتى نصل إلى القصة التى تعنينا منها لنسمع إليها مرة أخرى .

انطلقت صاحبتنا فى خضم الحياة .. تتقاذفها الأنواء . وطفا بها الذكاء والجمال والحظ الحسن ، فى محيط

تلك هى خير عدته وأمضى أسلحته .. وصادفها النجاح فلم تغرق، بل ظهرت وبرزت وقفزت، وأصبحت تتمتع بالكثير مما تتشوّق إليه النساء، الكثير من الشهرة، والكثير من المال، والكثير من قلوب الرجال.

وكان أول قلب صادفها، قلب كهل ثرى.. مفرط الثراء، أغدق عليها الكثير، ووهبته الكثير.. وخرجت من الفندق الكبير بعد أن احتوتها وإياه الغرفة الفخمة، وهى - على حد قولها - تتحفز وتتحدى، وتتخيّل أن كل إنسان يشير إليها ليتهمها بما فعلته.. وتنظر هى إلى الناس متحدية، وهى تكاد تقول أجل.. لقد فعلت هذا. ماذا تريدون منى.. سأفعل كل ما أريد. لقد كانت تتحدى الناس، وتتحدى الحياة، وتتحدى...

هل نقول الشرف أيضاً؟. لا.. لا داعى.. هذا شىء يتوارى سريعاً فى مثل هذه الظروف، فلا نكاد نجد له أثراً.

ومرت عليها القلوب بعد ذلك، بعد أن اختنق القلب الأول من محيط حياتها، قلب ثان، وثالث، ورابع، ولا أظن هناك ضرورة لذكر شىء عنهم أولا لأنى أريدهم فى قصص أخرى. وثانياً كما سبق القول لا أريد أن أكثر من الظلال والتفاصيل.

لقد مرّت عليها القلوب الواحد تلو الآخر .. قلوب محملة بالحب وبما هو أجدى وأنفع من الحب .. حتى كان ذات يوم ، مرّ عليها قلب صاحبنا ، وصاحب القصة.

عذراً ، لقد أطلنا وقوفه بباب القصة .

كل هذه الصفحات ولم ندخله بعد ؟

لندعه يتفضل ، ولندعها تتحدث عنه ، حالمة النظرات ، ملء صوتها الحنين ، وملء عينيها اللهفة والشوق .

* * *

رأيته أول مرة فى خلال الحرب فى ليلة من ليالى الشتاء، ضابطاً إنجليزيا برتبة (ماجور) وقد جلس فى شبرد .. أمام مائدة رص عليها الساقى صحاف العشاء .

وجلست أرقبه وقد علق ذراعه — التى أحاطتها اللفائف — فى عنقه وأخذ يتناول الطعام باليد الأخرى .. حتى لم يبق أمامه سوى شريحة اللحم .. ونظر إليها فى حيرة ، دون أن يدرى كيف يقطعها ليأكلها ، وهو بيد واحدة لايستطيع أن يمسك بالشوكة والسكين ، وبدت لى فى نظراته حسرة وهو يدفعها جانباً ، ويلقى بالشوكة من يده فى يأس .

ولست أدرى مبعث هذه الشفقة ، التى أحسست بها نحوه ، ألأنه حقاً كان يستحق العطف ، وهو يجلس أمامى

كطير غريب مهيض الجناح . . أم تراها نوبة من نوبات الرقة التى تصيب الإنسان أحياناً ، فترهف حسه ، وترقق مشاعره ، وتتركه عطوفاً على الناس محباً لهم ، يوزع الحنان ذات اليمين وذات اليسار . . أم تراه القدر الذى يدفعنا إلى أن نأتى بأفعال تافهة ، قد لا يخطر فعلها ببالنا ، ومع ذلك فنحن نقدم عليها لا لشىء إلا لتغير مجرى حياتنا . . أم تراه الحب الخفى الكامن الذى يحس به الإنسان — كما يقولون — من أول نظرة ؟ .

على أية حال ، وسواء كان هذا أم ذاك . . لقد أحسست دافعاً لا يقاوم . . يدفعنى إلى التقدم إليه ، فأجلس بجواره وأتناول الشوكة والسكين ، وأسأله فى خجل أن يسمح لى بأن أعاونه على تقطيع شريحة اللحم ما دام لا يستطيع تقطيعها .

وبهت الرجل ، ولست أشك أنى أنا نفسى لو فكرت فيما أقدمت عليه لبهت ، بل لأحجمت قطعاً عن الإقدام عليه . . خاصة وإنى كنت أربأ بنفسى أن تهون حتى تأت بما لم تكن تقدم عليه وقتذاك سوى « أرتستات الحرب » من مجالسة الضباط الأجانب وتصيدهن .

ولكنى فعلت ما فعلته . . بلا أقل تفكير ولا روية . . ووجدت نفسى قد انتهيت من إعداد قطعة اللحم . . وأخذت

أرقبه وهو يتناولها ، كما يرقب الإنسان قط جريح يتناول الطعام من يديه .

وانتهى من الطعام ونظر إلىّ نظرة ملؤها الحمد ، وقال لى باسماً : « شكراً » .

ولم يكن هناك بدّ بعد ذلك من تبادل الحديث ، حديث عام عن الجو والحرب . وبعد برهة نهضت للانصراف ومددت له يدى مودعة ، وتولاه الدهش لمحاولتى الانصراف ، دهش لا يقل عن دهشه عندما أقبلت عليه وجلست بجواره ، فما كان يظن أن المسألة يمكن ألا تعدو مجرد مساعدة منى لإطعامه « بلا مقابل » . . وإن عطفى عليه ليس من باب إلقاء الشراك ونصب الأحابيل ، وما كان يتصور قط أننى سأنصرف عنه بنفس الطريقة التى أقبلت عليه بها .

ورجانى أن أنتظر معه برهة وألا أتركه هكذا سريعاً ، فمن حقه علىّ أن يرد الجميل ، وأنبأنى أن مغادرتى إياه كأنه عابر سبيل ستؤلمه كثيراً . . وأن أقل ما يمكن فعله هو أن أتيح له فرصة لقاء أخرى ، وألا أذهب عنه هكذا بلا أمل فى صداقة ، أو وعد بلقاء .

وقلت له إننى لست من النوع الذى قد يخطر بباله ، وأن محاولتى إطعامه لم تكن سوى دفعة عطف وإشفاق . .

وأن من العبث أن ننشىء بيننا أية رابطة ، وأن من الخير له ألا يأمل فى شىء أكثر من هذا اللقاء العابر .

وهكذا حاولت جهدى أن أصده ، وأوقف كل ما بيننا عند هذا الحد ، ولكنه ألحّ .. وألحّ .. ورفض أن يتركنى أنصرف دون أن أعطيه رقم تليفونى ، وأعطيته الرقم .

وقد يخطر ببالك .. بعد ما قلت عن محاولتى صده ، أنى أعطيته رقماً خاطئاً ، مادمت حقاً لا أريد أن أنشىء بينى وبينه أية علاقة .. ولكنى مع ذلك أعطيته الرقم الحقيق ، لأنى رغم كل ما قلت .. كنت أحس بدافع خفى ، يدفعنى إلى أن ألقاه مرة أخرى ، وكنت أكره أن يختنى عن عينى .. فلا أراه بعد ذلك .. أهو الحب ؟ .. أم القدر ؟ .. أم الشيطان ؟ . أم ثلاثتهما معاً ؟ . من يدرى !!

والتقينا بعد ذلك مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وأحسست أنى أندفع بجنون إلى هاوية حب عجيب ، حب إباحى منطلق من كل قيد .

لقد أحب كلانا الآخر .. حباً جنونياً خاطفاً ، وكنت حرة ، وكان حراً ، فانطلقنا نعب من كأس المتع ، لا يقف فى سبيلنا عقبة تقاليد ، أو خشية عواقب .

كنت أشعر لأول مرة أنى محبة محبوبة ، وأنى أستطيع

أن أتمتع بحبي على ملأ من الناس فى وضح النهار، وأنى أعيش لساعتى ولحاضرى، لا أعبأ بماض ولا مستقبل، أجنى ثمار اليوم، مغمضة عينى عن مرارة الأمس وأشواك الغد.

أية سعادة يمكن أن يحسها الإنسان أكثر من هذه، سعادة المحب المحبوب الذى يرتع فى حبه بلا خوف ولا خشية.

ومرت الأيام بنا. وبدأ يضع خططه.. كأننا زوجين: وكأننا لن نفترق فى يوم ما، وإذا افترقنا، ففراق مؤقت إلى اللقاء مصيره ومنتهاه.. حتى كانت ذات ليلة جلسنا وأحد أصدقائه للعشاء.

وسأله الصديق بطريقة عابرة، عن زوجته وأولاده، وعن آخر أنبائهم... وسرى السؤال الذى ألقاه الصديق ببساطة.. مسرى الكهرباء. فتملكه الاضطراب، وتملكتنى الرجفة.

وساد السكون برهة، سكون ما قبل العاصفة، وأجاب هو على السؤال باختصار، وانتهى العشاء.. وانصرف الصديق، وهبت العاصفة.

هبت العاصفة من ناحيتى فما كانت لدىّ أقل فكرة عن زوجته وأولاده، وتلقى هو الزوبعة بهدوء.. وأقسم لى

أنه وزوجته فى شبه فرقة ، وأنه ينتظر أول أوبة إلى الوطن حتى يطلقها .

ومرت العاصفة بسلام ، وليس أسهل على المحبين من تهدئة العواصف والزوابع ، فما وُجد الحب إلا ووُجد السلام .

وهكذا استمررنا ننهل من المتع وننهب من اللذات ، حتى كان يوم ، حلت الفرقة ، فقد كان عليه أن يغادر مصر إلى أحد ميادين القتال .

وبكينا كثيراً ، هو الرجل الذى أشابت فوديه المعارك ، وأنا المرأة المحنكة المجربة .. وقفنا نودع بعضنا ، ونبكى كطفلين غريرين .. لقد حل بنا الغد المرير .. الذى كنا نظن أنه لن يولد .

ومن مساوىء الحياة ، أنها بقدر ما تعطيك من المتع ، تعطيك ألما ، وبقدرما ترفعك إلى قمم السعادة والأمل ، بقدر ما تهوى بك إلى قرارة اليأس والمرارة والشقاء . فكأنى بها ، تندم على ما وهبت ، فتسترده منا مضاعفاً .

لقد أحسست بعد الفرقة برد فعل شديد ، وفراغ كبير ، وظلمة حالكة ، أشبه بالظلمة التى يحسها الإنسان بعض طول حملقة فى ضوء خاطف .

وبدأنا نتبادل الرسائل ، فحملت لى رسائله الكثير

من العزاء والطمأنينة ، وكان يكتب إلىّ كأنى زوجته .
وظلت الرسائل تترى علىّ الرسالة تلو الرسالة ، ملء طياتها الأشواق والحنين والآمال العذبة .. حتى كان ذات يوم وصلتنى إحداها ، فإذا بها تحمل فى طياتها ، نبأ موته ! !

أجل ! .. لقد كنت أول من أبلغ نبأ وفانه ، باعتبار أنى زوجته ! !

ولم أصدق عينى فى بادىء الأمر ، أيمكن أن تضع هذه الكلمات القلائل ، نهاية لكل ما كان بيننا ؟ . أيمكن أن توضع الخاتمة المروعة ، فى بضعة كلمات فى رسالة مقتضبة لا تزيد على سطر أو سطرين ، أو ينتهى كل هذا الحب والأمل بمثل هذه البساطة ، ويصبح كل شىء فى لحظة واحدة لاشىء .

* * *

وصمتت محدثتى ، ولمحت فى عينيها عبرات تترقرق ، ورأيتها تضغط بأسنانها على شفتيها ، وأطرقت برأسها ، وبدا لى أنها تبذل جهداً كبيراً لتتمالك قواها ولتعاود حديثها — فتهمس قائلة :

إن من العبث أن أحاول أن أصف لك مشاعرى وقتذاك ، فأنت أدرى بها ، فلا شك أنك أحببت ، ولا شك أنك تستطيع أن تتصور كيف يكون حبيبك ملء ناظرك ،

ومنتهى أملك ، فى لحظة من اللحظات ، وفى اللحظة التالية يصبح كأنه ما كان : يصبح لاشىء .

عندما يحاول أن ينتزع منك شيئاً تملكه ، فإن جهادك فى محاولة الاحتفاظ به . . قد يعزيك بعض الشىء عن فقده . ولكنك عندما تتلفت فجأة فتجد أعز شىء لديك قد تسرب من بين يديك ، بلا سبب ولا مناسبة ، وبلا أى أمل فى استرجاعه ، فإن ذلك أمر يبعث على الجنون .

وهكذا أحسست أنى أوشك أن أجن من فرط التفكير وفرط الحزن ، ووجدت أن القدر قد أمعن فى السخرية منى ، وأنه قد استرد منى أكثر مما أعطى مئات المرات ، وأنه غبننى غبناً فظيعاً . . إن الجرح الذى خلفه موته فى قلبى لا يبرأ ولا يندمل . . إنى أبصر صورته فى كل ما أرى . . وأسمع صوته وهمساته تطن فى أذنى كلما خلوت بنفسى .

كل قطعة من هذا الأثاث تذكرنى به ، وما سرت فى الطريق إلا وخلت ذراعه فى ذراعى ، يتأبط أحدنا الآخر كما تعودت أن أسير وإياه .

إن الأيام لم تحمل لى فى مرها النسيان . . إنى أعيش على الذكرى وألتمس فيها العزاء ، فما خفت لهفتى عليه وحنينى إليه . بل إن الحنين ليشتد بى فى وحدتى . فلا يكاد يطرق

الباب حتى أتوهمه الطارق ، وأندفع إليه لأرتمى بين أحضانه .

إنى أتعلق بالأوهام الضائعة الزائلة . وأعلل نفسى بآمال سرابية كاذبة ، وأقول لها : من يدرى .. قد يعود إلىّ مرة أخرى .

أجل يا سيدى .. إنى أعلل النفس ، بعودة الميت . تلك هى الذبالة الخابية ، التى تبعث فى حياتى بصيص من ضوء .

* * *

وصمتت محدثتى مرة أخرى .

يا لها من امرأة عجيبة .. تحيا على أمل عجيب .

« من يدرى ، قد يعود إلىّ » ..

ياله من أمل ضائع ، ووهم كاذب .. إن الموت إذا أخذ لا يعطى ما أخذ .. إن الموتى لا يعودون قط .

* * *

ومع ذلك ... فقد عاد الميت ، وأضحى الوهم الكاذب حقيقة واقعة .

لقد غادرت محدثتى فى ذلك المساء ، بعد أن قصت علىّ قصتها ، وتركتها كما تقول : تحيا على الذكرى ، وعلى موات الأمل ، وعلى البصيص الخابى .

ولم نلتق بعد ذاك إلا فى فترات قصيرة متقطعة ، لم يتعد

الحديث بيننا خلالها السؤال عن الصحة ، وعن الأحوال . . حتى كان ذات يوم زرتها فى دارها وانتهينا من السلامات والتحيات ، ثم ساد الصمت لحظة ، ووجدتها تقطعه بقولها ببساطة :

— لقد كتب إلىّ .

وهززت رأسى مستفهماً :

— من ؟

— هو .

— لا أفهم من تقصدين ! .

وبلهجة هادئة نطقت باسمه .

وساد السكوت ، ونظرت إليها مشدوهاً مأخوذاً ، لقد دهشت طبعاً من عودة الميت إلى الحياة وكتابته لها . ولكن الذى أدهشنى أكثر . . هو تلك البساطة وذلك الهدوء الذى أسرت بهما الخبر إلىّ .

ووجدتها تقول فى صوت خافت :

— إن عودته لا شك تبعث على الدهش .

— ليست عودته فقط هى التى تبعث على الدهش .

ورفعت حاجبيها وهزت رأسها متسائلة :

— ماذا تعنى ؟

– أعنى أن الشيء الذى يدهش أكثر من عودته، هو وقع عودته عليك.

ووجدتها تغرق فى صمت عميق، وبدا عليها شرود الذهن. وبعد لحظة هزت رأسها فى حيرة وقالت كأنما تحدث نفسها:

– لقد قرأت خطابه، وأنا لا أصدق عينى، وأمسكت به أعيد قراءته المرة بعد المرة، وقد تملكنى شعور خليط من كل شيء، إلا شيء واحد، هو الفرح، أجل لقد تملكنى شعور بالدهش والحيرة والحزن، هل تصدق إذا ما قلت لك أننى أحسست أنى فقدت عزيزاً لدىّ.. فقدت الميت الذى كنت أنتظر عودته، فقدت الأحلام الغامضة، والانتظار المبهم.. فقدت لذة الحزن. لقد أحسست أن حشد الذكريات الذى كنت أعيش عليها لم تعد لها قيمة ولا فائدة.

ووجدتنى أفكر، ماذا أكتب له، ماذا أكتب للحى الذى أباد الميت الذى كنت أعيش على ذكراه.

ماذا يمكن أن أفعل وإياه، بعد أن استقرت بى الحياة فى جوار رجل آخر، قد يكون لم يهبنى الحب ولكنه وهبنى الاستقرار.

ثم أين كان هو طوال تلك المدة، الذى كنت أبكيه وأعذب نفسى من أجله، ولما لم يذكرنى قبل اليوم؟

إنه يقول : إنه سيوضح لى ما حدث .

ولكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث ، لقد مضت سنون على نهاية الحرب ، فلِمَ لم يكتب إلىّ قبل هذا ؟

ماذا أريد منه الآن .

ماذا أريد منه وقد بدد أوهاماً خلقتها لنفسى من ذكريات غابرة ، وأضفيت عليها جواً من الوفاء للميت الراحل . . والإخلاص للحبيب المفقود .

لقد بدت لى عودته أشبه بضحكة ماجنة ساخرة ، تنبعث فى مشهد مؤثر حزين . . فتضيع هيبته ، وتذهب رونقه ، وتمسخ تأثيره .

لقد عوّدت نفسى على دور الحزينة الولهى ، الحالمة الشاردة . . الأمينة على العهد . . الباقية على الود . . المتعلقة بالذكرى . . المتعللة بالأوهام .

لقد تعوّدت الدور حتى أجدته ، وحتى أضحيت أحس منه بلذة ممتعة .

كيف يعود بعد هذا . . فيهدم قصور الأوهام ، ويسلبنى متعة العيش فيها .

لقد فقدته مرتين : مرة عند ما مات ، ومرة عند ما عاد إلى الحياة .

لقد مات ، خلّف لى الذكرى والأحلام ، فلما بُعث أضاع الذكرى وبدد الأحلام .

ولم أشعر إلا وأصابعى تطبق على الرسالة وتمزقها إرباً .

وأحسست أن كل شيء قد انتهى ، بينى وبين الاثنين ، الميت والحى .

° ° °

ونظرت إلى المرأة ولم أستطع أن أكتم ضحكة انطلقت من فمى ، وقلت لها :

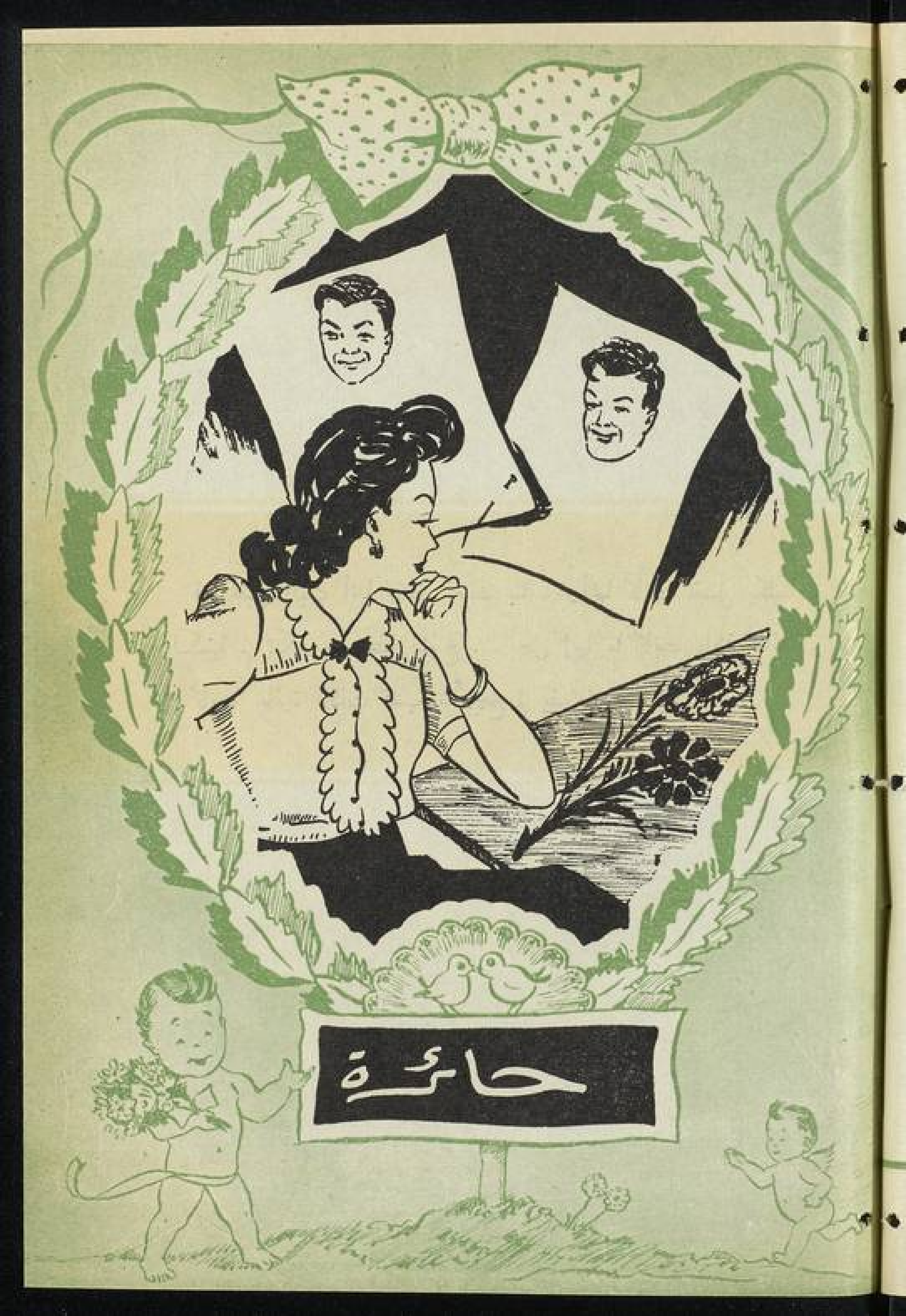
— الحمد لله .

وهزت رأسها متسائلة :

— عـــلام ؟

— الحمد لله الذى جعل الموتى لا يُبعثون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا قد عادوا .. فأفسدوا علينا حياتنا التى نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا من حزننا عليهم ، ومن زيارتنا لمقابرهم ، واستعادوا الإرث ممن ورث ، واسترجعوا التركات من أصحاب التركات .

الحمد لله الذى جعل الموتى لايُبعثون لمجرد دعوات .. من الأحياء المنافقين .


حائرة

قد يخيل إليك أنها كانت تعبث بنا ، وأنها كانت تتسلى بكلينا ،
ولكنها لم تكن من هذا النوع . . أجل إنها ما كانت عابثة طائشة ،
بل كانت حائرة . ذات قلب يتأرجح لم يقر له قرار .

أخرجنى الضجر ذات ليلة هارباً من ضجيج المدينة وضوضائها إلى مقهى منعزل قد لفه الفضاء الفسيح وسترته الطبيعة بحجاب من خضرة الروض ونضرة الزهر ، وكانت الليلة ليلة صيف . . والقمر الساحر قد توسط كبد السماء وغمر المكان بضوئه الفضى ، وقد ساد السكون إلا من حفيف أوراق تعبث بها نسمات كأنها الخفقات . . نسمات صيف قد رقت حتى حسبتها « تجىء بأنفاس الأحبة نعما » .

ليالى الصيف . . حياك الحيا . . ما فتن القلب مثل نسماتك وهمساتك ، وما أطرب الفؤاد كنغماتك ونفحاتك . أنت زمن الحب وموسم الهوى . . ما تنفس الحب إلا فى هوائك . . وما نبت غرسه إلا فى ثراك . . نجـــومك تشع بضوء الحب ، ورياضك تزخر بالعشاق كأنها معاكف الحب ، وكل ما فيك يبعث على الهوى ويوحى بالحب .

كان المـكان قد خلا إلا منى ومنه . . وقد أبصرت شبحه فى ضوء القمر ، وقد رفع إلى شفتيه قدحاً من الجعة يحتسيها ببطء . . وتبادلنا التحية وبضع كلمات تافهة ثم ساد السكون ، وبعد هنيهة اقترب منى بمقعده ، فاستطعت أن أتأمل وجهه بوضوح عن ذى قبل . فرأيته رجلا وسيما ، نبيل التقاطيع . .

وإن كنت لم أستطع أن أحدد عمره بالضبط .. ولا حتى بالتقريب .. فقد كان من ذلك النوع الذى قد يخطىء الإنسان فى تقدير عمره عشر سنوات أو عشرين سنة .. ربما كان كهلا ، ولـكنه كان يفيض بالحيوية ويمتلىء بالشباب .

وتجاذبنا الحديث .. وفى مثل هذه الليلة .. وفى مثل هذا المكان .. لا أظن حديث اثنين يمكن أن يخرج عن دائرة الحب .. فليالى الصيف ، كما قلت ، مواسم الحب .. وإذا لم يكن الإنسان فيها عاشقاً . فلا أقل من أن يكون متحدثاً عن الحب .

قال الرجل وهو يهز رأسه ببطء :

ـ لقد أدبر زمن الحب .. فما أظن هناك نساء يمكن أن يثرن فى النفوس الحب .. الحب بمعناه الحقيقى .. لا اللهو والعبث الذى يظنونه حبـاً .. لقد كانت وحدها هى التى تستطيع أن تثير الحب .. وقد أحبها كلانا حباً عميقاً .

ـ كلاكما ؟!! .

ـ أجل ! أنا وأخى .. لقد كنت أكبره بعام ، ولـكننا كنا كتوأمين .. وكان كلانا يحب الآخر كما يحب نفسه .. فما افترقنا منذ مولدنا لحظة واحدة .. وكان كل منا يشارك الآخر فى كل شىء .. حتى عنـد ما أحببنا .. أحببنا فتاة واحدة .

دعنى أولا أصف لك الدار التى كنا نقطنها وقتذاك . . والتى كانت موطن حبنا .. ومرتع صبانا .. إننى لأتخيلها أمام ناظرى ، وقد ظللت مدخلها شجرة التوت الوارفة الظلال ، وامتدت ساحتها الفسيحة التى كانت تفصل بين جناحى الدار وتجعل كل منهما داراً قائمة بذاتها . . كم عدونا فى الساحة ولهونا . . كم طربنا وضحكنا . . كم جعلنا من حجرات « البدروم » مخابىء كنوز . . ومن الساحة ميادين قتال . . ومن الأشجار معاقل وحصوناً . . لقد كان القلب إذ ذاك خالياً . . وكان الفؤاد حراً طليقاً .

كان القلب خالياً حتى بدأنا ندخل مرحلة الشباب وحتى أنبأتنا والدتنا ذات يوم . . وقد جلسنا فى الشرفة المطلة على الساحة .. بأن « عائدة » قد عادت ، ونظرنا إليها وهزّ كل منا رأسه مستفهماً : « عائدة . . من ؟ » . . فما كنا نذكر من تكون « عائدة » . وذكرتنا أمنا بجيران كانوا يقطنون الجناح المقابل لنا ثم سافروا منذ بضع سنين ، وأردفت تقول متسائلة :

— لقد عادوا لسكنى الدار مرة ثانية ، كيف لا تذكرون ابنتهم « عائدة » ؟ .

والواقع يا سيدى أننا كنا قد نسيناها فعلا . . رغم أننا - بعد فترة من الوقت عند ما أصبحنا لا نكاد نفكر إلا فيها

أو نتحدث إلا عنها ـ كنا نقسم أنها ما غادرت رأسينا طوال تلك السنين وما نسيناها لحظة واحدة . . كذب فى كذب !! فإن أقصى ما كنا نحمله لها فى رؤوسنا عندما أنبأتنا أمنا أنها قد عادت . . هى صورة باهتة لصبية ناحلة شاحبة ترقبنا من شرفة دارها فى صمت وسكون . . لا نكاد نذكر شيئاً من تفاصيل وجهها . . فقد كانت دائماً متنائية متباعدة .

ورأيناها أول مرة بعد عودتها عند زيارتها لنا هى وأبويها . . وأذكر أننا أخذنا من مرآها وقتذاك . . فقد كانت شيئاً آخر غير ماتوقعنا أن نراه . . شيئاً يختلف تمام الاختلاف عن تلك الصبية الناحلة الشاحبة التى كانت تقف فى الشرفة كالطائر الهزيل . . لقد كانت تبدو كأنها أميرة من هؤلاء الأميرات اللاتى نبصر صورهن فى اللوحات الزيتية القديمة . . بشعرها الذهبي المتهدل على كتفيها ، وقد زين مفرقه بوردة بيضاء قطفتها من الحديقة . . وعينيها الزرقاوين الصافيتين ، وأنفها الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين تفتران بين آونة وأخرى عن صفين من اللآلىء . . .

وعندما مسست يدها مصافحاً سرت فى جسدى هزة ! وخيل إلىّ أنها قد ضغطت على يدى ضغطة خفيفة ، ولمحت فى عينيها بريقاً ، وشاعت فى أساريرها ابتسامة حلوة . .

وبدا عليها كأنها تصافح صديقاً قديماً سرها لقاؤه مرة ثانية، وأقبل أخي يحييها.. وأحسست بقلبي يدق بشيء من العنف، فقد بدا فى عينيهـــا نفس البريق، وشاعت فى قسماتها نفس الابتسامة.. وانتابنى شعور بالضيق.. لست أدرى ما كان مبعثه، أهو الخوف من شيء مجهول.. أم هى الغيرة من أخى الذى كنت أعتبره كنفسى؟ لقد التقيت أعيننا وقتذاك، فخيل إلىّ أننى أبصر فى عينيه ذلك الشيء الذى كنت أحس به.. وبدا لى كأن سحابة قاتمة قد قامت بيننا.

وصمت الرجل برهة ليعيد ملء قدحه من زجاجة الجعة.. أو ليعيد ملء ذهنه من ذكريات غابرة نائية.. وليستعيد إلى نفسه صورة الفتاة الذهبية الشعر بوردة بيضاء فى مفرقها.. وقد وقف أمامها هو وأخوه.. فتيان فى زهرة العمر وميعة الصبا.. تفيض نفساهما بالأمل العـــذب والحلم الجميل.. ويتطلعان بأبصارهما إلى أفق بدت فيه شمس الحب، وضاءة مشرقة.. وبنفسيهمـا قلق مبهم وجزع خفى.. من أن يمر الوقت بالشمس المشرقة فتضحى مضنية محرقة.

ورشف الرجل من قدحه رشفة طويلة، ثم عاود الحديث قائلا:

ــ لا أظن من السهل علىّ أن أستعيد تفاصيل الحوادث

فى الأيام التى تلت ذلك .. فقد اندفع كلانا فى الحب كما يندفع جواد جامح أطلق له العنان . . أو كما تتدفق مياه نهر يهبط من فوق شلالات عالية . . حتى لقد كان اليوم الذى يمر بنا دون أن نبصرها . . نحس فيه أننا أصبنا بكارثة أو فاجعة . . ولـكن أين ذلك اليوم الذى كنا لا نبصرها فيـه . . ونحن اللذان قد حفظنا عاداتها وحركاتها وسكناتها . . عن ظهر قلب . . حتى لنستطيع أن نعرف فى أية لحظة من لحظات اليوم ماذا تفعل ، بل أننا ـ من فرط ما كانت تشغل رأسينا ـ لنستطيع أن تتنبأ ما تنوى فعله فى الغد .

وتغيرت عاداتنا طبقاً لعاداتها . . فقد كرهنا الخروج من الدار . . وأحببنا الجلوس مع أمنا ، وهى التى كانت لا تكاد تبصر وجهينا إلا فى أوقات الطعام . . فقد كانت أمى تحب الفتاة لأنها لم تنجب بنات ، وكانت تعتبرها كابنتها . . فكانت الفتاة تقضى معظم يومها فى دارنا .

إنى لأبصرها أمام عينى وقد جلست فى الشرفة أمام أمى وانهمكت أصابعها فى عمل « التريكو » ، وأخذت أشاكسها أنا وأخى . . بخطف « التريكو » من يدها . . أو بنزع إحدى الإبر . . وهى تنتهرنا غاضبة .

وصمت الرجل مرة ثانية ، ورأيتـه قد سبح ببصره فى الظلمة المترامية ، ثم عاد يسألنى :

ــ أظنك تتساءل . . كيف استطعنا أن نسير فى حبها سوياً جنباً إلى جنب . . دون أن ينشب بيننا نزاع أو نضال ؟ ! وأظنك تتساءل كيف كنا نتحدث عنها عندما نخلو إلى بعضنا ؟ حسناً . . لقد حاول كل منا فى مبدأ الأمر أن يدعى أن الفتاة ليس لها فى نفسه موقع غير عادى . . حتى كانت ذات ليلة ، أصبح الأمر لا يحتمل ادعاء ولا كتماناً .

كنا جلوساً فى الشرفة . . وقد لفنا جو شاعرى عجيب . . صاغه سكون الليل ، ونور القمر ، وهمس النسيم ، وأضفت عليه نفوسنا العاشقة الحالمة روعة وسحراً . وسألناها أن تغنى . . فقد كانت تجيد الغناء .

وترددت برهة . . ثم بدأت تشدو بصوتها العذب الحنون « وحقك أنت المنى والطلب » .

لن أحاول أن أصف لك مشاعرى فى تلك اللحظات . . فأنا أدرك أن كل محاولة منى فى ذلك ستكون عبثاً فى عبث لأنك إما أن تكون قد جربت الحب ، ومرت بك تلك اللحظات أو لحظات مشابهة . . فتستطيع أن تفهم تلك المشاعر دون أن أصفها لك . . وإما أن تكون امرأ قد أقفر من الحب

قلبه . فلن تستطيع أن تفهمها مهما حاولت وصفها لك .

وتركنا الفتاة فى تلك الليلة . . وفى قلبينا جمرة تتأجج . . ولم نذهب إلى الفراش .. فقد كان من العبث أن نحاول النوم بتلك الأعصاب المتوترة . . والنفوس المرهفة . . وأخيراً قلت له فى صوت خافت :

ـ دعنا نتكلم لنواجه الحقائق فهذا خير لنا . . إنى أحبها وكذلك أنت . لقد دفعتنا الظروف الخرقاء إلى أن نعشق فتاة واحدة . . لقد وقع الأمر ، ولم يعد لنا حيلة فيه . . ولكن لا بد لنا أن نستقر على حال . . لا بد أن يفسح أحدنا الميدان للآخر .

وفى تلك الليلة اتفقنا على أن نسألها فى الغد ـ كل على حدة ـ أن تختار أحدنا زوجاً لها حتى لا نظل هكذا نتأرجح بين اليأس والرجاء .

ولما كنت الأكبر سناً . . فقد كان علىّ أن أكون البادىء بالسؤال . . ومكثت طول اليــــوم أتحين الفرصة . . حتى استطعت أن أخلو بها أخيراً . . وخرجنا نتجول فى الحديقة وقد تملكنى اضطراب شديد . . وكنت أكاد لا أتمالك نفسى ، وأحسست برأسى يعصف بما فيه . . ولسانى يعقده الحياء . . فلا أنبس ببنت شفة ، وأنا الذى قد حفظت ما سوف

أقوله عن ظهر قلب ، ولـكنه تبخر من رأسى فلم أعد أذكر منه كلمة . . وأخيراً منّ الله علىّ بالحديث فقلت لها إننى أحبها . . ولم يبد عليها أن قولى قد فاجأها . . بل شرد بها الذهن وبدت مستغرقة فى تفـكير عميق . . وطال بهـا الصمت دون أن تقول شيئاً . . حتى لم أعد أحتمل . . فأمسكت يـــدها وقلت منفعلا :

ــ تكلمى . . قولى إنك تحبيننى كما أحبك . . كُفِّى عن هذا الصمت فإنه يقتلنى .

وأخيراً نظرت إلىّ فلمحت فى عينيها دمعة تترقرق وسمعتها تقول بصوت حبيس :

ــ إننى ، أحبك ، ولـكنى لست واثقة ، دعنى أفكر .

وأفلتت يدها من يدى وانطلقت هاربة . وأنبأت أخى بما حدث ، وأنا أحس بشىء من الألم ، وطلبت منه أن يسألها بدوره حتى نرى ما ستقول .

وسألها أخى ، فأجابته يا سيدى تماماً كما أجابتنى ! .

قد يخيل إليك أنها كانت تعبث بنـا ، وأنها كانت تتسلى بكلينا ، ولـكنها لم تـكن من هذا النوع . . أجل إنها ما كانت عابثة طائشة ، بل كانت حائرة . . ذات قلب يتأرجح . . لم يقر له قرار .

ومرت الأيام ، والشك يعصف بنفسينا .. دون أن نعرف أينا الرابح ، وأينا الخاسر .. حتى استقر الرأى بيننا أخيراً على أن نضع نهاية للأمر .. فقد كنا نحن الإثنين نتعذب ، وكنا نرى أن اليأس قد يكون خيراً بكثير من هذا الشك المرير ، وصممنا على أن نطلب منها أن تحسم الأمر وتقول كلمتها .

ولقيتها على حدة وأنبأتها بما عزمنا عليه ، فعلا وجهها الحزن وأجابت هامسة :

– لِمَ تصران على إيلامى .. ألا نستطيع أن نبق كلنا سعداء سويا ؟

– لا فائدة من ذلك .. لا بد أن تختارى أحدنا .

وبدأت أشرح لها ما اتفقنا عليه ، وكانت عائلتها ستتناول العشاء عندنا فى الليلة التالية .. فكان عليها قبل الحضور إلينا أن تقف فى شرفتها وتقذف وردتين ، وردة بيضاء للذى وقع عليه اختيارها ، وأخرى حمراء للذى كان عليه أن يخلى الطريق ويذهب فى سبيله .

وقد تقول لى يا سيدى إن هذه طريقة عجيبة أو خيالية بعض الشىء ، ولكن تذكر أننا كنا عشاقاً ، وأننا كنا فى ميعة الصبا ، والصبا والحب لا يريان فى أى شىء عجباً ولا غرابة .

وفى الليلة التالية . . قبيل الموعد . . كنت وأخى نجلس فى حجرتنا وقد شملنا صمت عميق . . لقد كان كل منا يكاد يثق بأنه هو الذى سيقع عليه الاختيار ، وكان كل منا يحس بالرثاء للآخر ، وأخيراً رفعت رأسى إليه متسائلا :

— من منا سيذهب قبل الآخر ؟

— كما تشاء . . لنقترع .

ولما كنت واثقاً من نفسى فلم يكن يهمنى أن أذهب أولا أو آخراً ، واقترعنا فكان عليه أن يذهب هو أولا ، ووقفت أرقبه وقد ملأنى الخوف والرهبة ، وبعد أن انتظرت برهة خرجت أنا . وكانت الساحة شديدة الظلمة أكثر مما كنت أتوقع ، وقد سادها سكون عميق ، ووقفت تحت الشرفة ، ولمحت شبحها قد اتكأ على حافتها . . ثم مددت يدى أتلقف الوردة التى قذفت بها ، وأحسست بقلبى يكاد يقفز من صدرى عند ما أبصرت لونها ، ورفعتها إلى فى ولوحت بيدى محيياً ثم عدت إلى الدار .

آه يا سيدى لو عرفت تلك السعادة التى كانت تفيض بنفسى وقتذاك . . تلك السعادة التى تملؤنا عند ما نعلم أننا قد سمعنا لنداء قلبنا جوابا ، وعند ما نعلم أن نصف أنفسنا قد أحس هو الآخر أننا نصف نفسه .

ومر العشاء كأنه حلم ، وكنت أبصرها وقد جلست بيننا وقد شع من عينيها سحر عجيب ، وأخذنا نحن الثلاثة نتحدث كأننا إخوة ، ولمحت أخي وقد أخذ يعبث بيده في الوردة الحمراء ، وأحسست له بلوعة ، وتملكني عليه أسى وحزن . . لقد فقد المعركة .

وانتهينا من العشاء ، وعندما جمعتنا الشرفة بعد ذلك . . تبينت غياب أخي وغيابها فتسللت من الجمع ، وذهبت لأبحث عنهما فلم أجدهما في الدار ، ونزلت إلى الحديقة ، وتقدمت في سكون ، ولم أبصر أحداً في بادىء الأمر . . فقد حجبت السحب نور القمر ، ولكن بعد لحظة انقشعت السحب وظهر القمر ليريني إياهما على قيد خطوات ، وكانت بين ذراعيه ، وحمل إلىّ النسيم همساتها تقول له :

– لقد كانت البيضاء لك . . فقد ظننته سيأتي أولا .

وانطلقت من الرجل زفرة حارة ، ثم ساد صمت عميق قطعته بقولي :

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– لاشيء ، حدث ما يمكن أن يحدث لكل إنسان يصاب بنفس الصدمة ، أو على الأصح لكل إنسان يعلو به القدر إلى ذرى السعادة ويسرى به في سماء النعيم ، ثم يتركه فجأة فيهوى من حالق ويندفع إلى هاوية سحيقة من اليأس المميت .

لو أننى لم أوهب تلك اللحظات الخاطفة من الأمل البراق ، ولو أننى استمررت على ما كنت فيه من شك وحيرة ، ثم حدث ما حدث ، لاستطعت أن أحتمل . . أما أن يلوح لى بالأمنية العزيزة ، فأذوق حلاوة الفوز لحظة ، ثم أجرع فى اللحظة التالية مرارة الهزيمة ، فذلك كان أكثر مما احتمل .

أجل لقد كان كثيراً علىّ أن أنتقل فجأة من يقين بحبها لى إلى يقين بحبها له ، لقد كانت صدمة ما أظن أنى تلقيت فى حياتى أكثر منها عنفاً ولا أشد أثراً .

إنى لم أحتمل البقاء فى الدار لحظة ، فذهبت أهيم على وجهى ، وصممت على الرحيل بلا عودة ، فما كنت أظن أنى أحتمل العودة بعد ماتلقيت من مرارة الخيبة وألم الخذلان .

ولم أكن أتصور كيف يمكن أن ألقاها ، وكيف يمكن أن ألقاه ، وعزّت على نفسى أن أجعلها موضع عطف أو محل رثاء ، وصممت على أن أكبت الحزن فى صدرى وأكتم اللوعة بين جوانحى ، وأن أحمل عبء الهزيمة ، وأرحل بعيداً حتى يمنحنى الزمن السلوى ويهبنى النسيان .

ولم يكن ذلك على الزمن بعسير ، فما أظن هناك أقدر منه على منح السلوى والنسيان ، فقد مرت بى الأيام وأنا ممعن فى البعد والشرود ، حتى بدأ أثر الصدمة يزول ، وأحسست

بمبلغ ما فى قرارى من حمق وجبن ، وتمنيت لو كنت أكثر احتمالا فاستطعت أن أبق وأتجلد .

وأخيراً عدت إلى الدار وقد أحسست أنى شفيت مما بى وأن جرحى قد اندمل .

وصممت على أن القاها بصدر رحب ونفس راضية وأن أسوق لهما أطيب الأمانى ، وأجمل الرغبات ، وأن أبارك حبهما وأقتل كل ما يمكن أن يستيقظ فى صدرى من حب وحنين .

وعدت إلى الدار محملا بكل هذه النوايا ، ولكنى لم أجد قط ما يدعو إلى اظهارها لسبب بسيط ، هو أننى وجدت أخى وحده حزيناً محسوراً . أما هى فقد هجرته ، وهجرت الدار ، ورحلت هى وذويها .

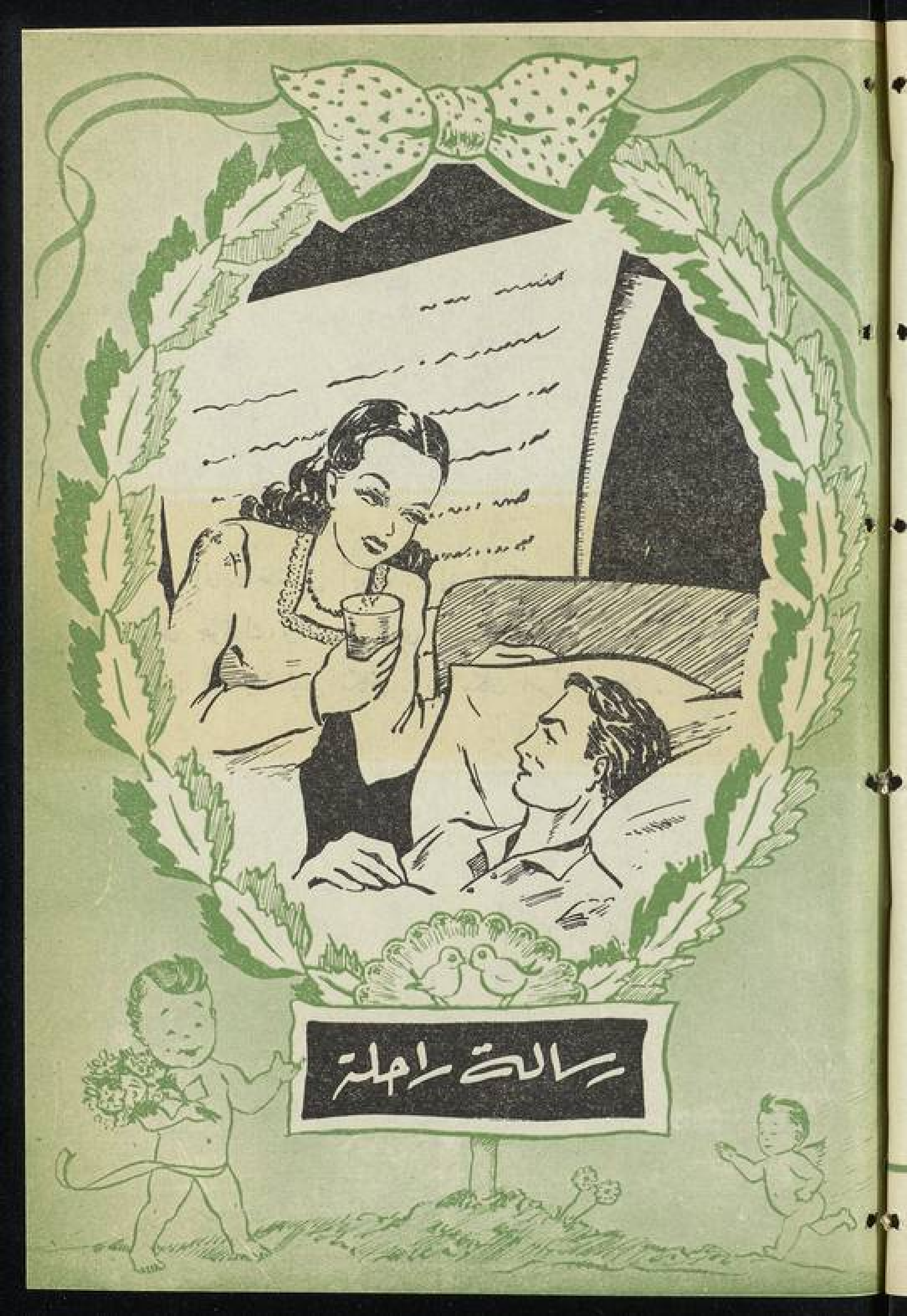
ماذاحدث ؟. كيف هجرته . ولِمَ أعرضت عنه . من يدرى؟!!

قد تكون ندمت على قرارها معه ، وأنها أحست أنها جرحتنى جرحاً بالغاً . ولم ترغب فى إيلامى أكثر من ذلك ، فصممت على هجره .

أو قد تكون لم تخطىء فى الوردة ، وأنها قصدتنى فعلا بالوردة البيضاء ، وأن قولها فى الحديقة لم يكن إلا على سبيل العزاء عندما أحست بفرط لوعته ومرارة خيبته .

من يستطيع أن يجزم ؟

لا أحد . حتى هى نفسها . لا أظنها إلا مازالت حائرة .. حتى يومنا هذا .


رسالة راحلة

إنى راحلة من أجلك .. إنى أحبك ، وبودى لو تسللت ورقدت
إلى جوارك ، وقضيت عمرى بين ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى
أعلم أن هذا ليس مكانى ، بل مكان امرأة أخرى .

تقلب الرجل على فراشه برهة وفتح عينيه فأبصر بأشعة الشمس تتخلل النافذة، وأحس بيده تلمس مظروفاً من الورق قد وضع تحت الوسادة، فأخرجه فى شىء من الدهش، وأخذ يقلبه بين يديه فوجد اسمه مكتوباً عليه، ولم يجد عليه طابع بريد، وسرعان ما فضه وأخذ فى قراءة ما به.

عزيزى :

أية سخرية هذه التى تجعلنى أكتب إليك وأنا منك على قيد خطوات؟

أنا أفهم أن يكتب الإنسان لصاحبه الغائب النائى، ليقرب بكتابته نأيه، ويرد غيبته، وليستعين بالكلمات على إطفاء حرقته وإرواء غلته.

أما أن يكتب إنسان لآخر، وهو يراه رأى العين، فذلك والله أمر عجيب، أو قل إنها إحدى السخريات.

إنى أكتب إليك كأن بيننا مئات الأميال!

مع أنى لو تقدمت بضع خطوات لألقيت بنفسى إلى جوارك على الفراش وضممتك إلىّ.

ولكن ما الفائدة؟!

ما فائدة أن يلهى المرء نفسه بمتعة سرابية وأمل خلب زائل؟

وأن يطمع فى شىء ليس له ، أو يعلق نفسه بمتاع غيره ؟

إن من العبث أن نحاول مقاومة القدر ، أو مغافلة الزمن ، أو محاولة اختلاس متعة قد أباها علينا .

إنى أكتب هذا لأنبئك ، قبل كل شىء ، إننى أحبك ، ولا أظن بقولى هذا أنى أنبئك بما لا تعلم ، فليس على الإنسان لكى يفصح عن حبه أن يقول « إنى أحبك » فالصب — كما قيل — تفضحه عيونه ، بل إن حركاته وخلجات نفسه لتنبىء بذلك عنه .

إنى ذاهبة عنك بلا رجعة ، لأنى أحبك ، ولا أريد أن أجعل من حبي ما ينغص عليك راحتك ، ومن نفسى حشائش طفيلية تفسد عليك زهرة حياتك .

لِمَ أحببتك ؟ .. وكيف ؟

أما لِمَ أحببتك ! .

فذلك أمر من السهل الإجابة عليه : أحببتك ، لأنك مخلوق لا يمكن إلا أن تحب .. أما كيف ؟ فذلك والله سؤال لا أدرى كيف أجيب عليه حتى الآن .. فلقد تسلل حبك إلى قلبى تسلل النوم إلى الجفون ، فهل يعرف الذى نام كيف تسلل النوم إلى مقلتيه ؟

إنى لأذكر كيف رأيتك أول مرة فى أوائل الصيف ،

وقد طرقت بابنا تسأل عن « بنسيون » تنزل فيه ، وكنت أعلم أن عمتى قد أخبرت السمسار أن لديها حجرة تريد تأجيرها خلال الصيف ، فتركتك تنتظر على الباب وذهبت أنبىء عمتى بأن رجلا يريد أن يستأجر الغرفة .

ولقيتك عمتى بالترحاب وأدخلتك لمشاهدة الحجرة ، ولم تمض لحظات حتى اتفقنا على الأجر ، ونزلت بدارنا .

ومرت بضعة أيام ، وأنا لا أكاد أبصر منك إلا شبحاً يتسلل من الحجرة أو إليها ، حتى إنى ما استطعت أن أتبين ملامحك وقتذاك ، فقد كنت لا تحضر إلى الدار إلا ساعات قلائل للنوم .

وكنت أقوم بالعناية بحجرتك ونظافتها ، فقد كنت فى الدار أشبه بخادم ، إذ نشأت يتيمة الأبوين ، فكفلتنى عمتى هذه ، ولا أظننى كنت عالة عليها فى يوم من الأيام ، فلقد استغلت جهدى كل الاستغلال ، فمنذ طفولتى وأنا أعمل فى الدار خادما .. أقوم بالكنس والمسح وغسل الأوانى ، فلما اشتد ساعدى علمتنى الطبخ وغسل الملابس وألقت علىّ كل أعباء الدار .

ولم يكن لها سوى ابن واحد ، هو ذلك الفتى الفاشل الخاسر ، الأحمق ، الأهوج ، الذى لم يصلح قط لأى شىء ، والذى كان يعيش عالة عليها .

ولقد صممت العمة على أن تزوجني منه، ولم أبد أنا رأيي. لأني لم أتعود قط أن أبدى رأيي فى أى شيء، فقد نشأت على أن أقبل كل ما أعطى.

لم أكن أحب الفتى، ولم أكن أحب غيره لأني لا أعرف معنى الحب!! ومتى كان لى أن أحب أو لا أحب؟ لقد كنت أعتبر الزواج واجباً لا بد لى من تأديته، كالكنس والمسح والطبخ والغسيل، وأنا ما ترددت قط فى تأدية أحد تلك الواجبات، فكيف أتردد أو أناقش فى مسألة الزواج؟ وكيف أقول أنى لا أريد هذا لأنى لا أحبه، وأنا ما فعلت شيئاً فى حياتى لأنى أحب فعله، بل لأنه يجب فعله؟

وهكذا وطنت نفسى على زواج الفتى، حتى ظهرت أنت فى أفق حياتى!

قلت لك إنه مضت بضعة أيام وأنا لا أبصر منك إلا آثارك فى الحجرة: بيجامتك المعلقة على المشجب، وملابسك المرصوصة فى الدولاب، وأدوات الحلاقة النظيفة المرتبة، وفرشاة الأسنان.

كانت المرة الأولى التى أتولى فيها أمر رجل غريب، فقد كان ذلك هو أول صيف تؤجر فيه عمتى إحدى حجرات الدار، وكنت أعلم من الحالة التى أجد عليها غرفتك بعد

ذهابك ، إنك تحاول جهدك أن ترفع عنى عبء ترتيبها وأن تبدو منظماً مرتباً ، فترتب الأغطية على الفراش ، وتعلق ملابسك على المشجب .

وكانت تلك المحاولات منك تثير ضحكى ، لأنك رجل والرجال لا يفهمون قط فى ترتيب الحجرات أو نظافة الدور فكنت أعيد ترتيب الحجرة .

ولست أدرى ما الذى جعلنى أحس عطفاً عليك فأحاول أن أقدم لك فنجاناً من الشاى قبل أن تخرج ، والتقيت بك فى ذلك الصباح وأنعمت فيك البصر وفحصتك جيداً فوقعت من نفسى موقعاً حسناً ، ووجدت منك إنساناً رقيقاً .

ومنذ ذلك اليوم نشأ بيننا نوع صامت من الود والصداقة ، وبدأت أستشعر شيئاً من المتعة وأنا أنظف حجرتك وأرتب الملابس ، كما كنت أنتظر مجيئك فى الليل حتى أسألك عما إذا كنت تريد حاجة أقضيها لك .

ويخيل إلىّ أنك قد بدأت أنت الآخر تحس شيئاً من المتعة عند وجودك فى الدار ، وأنك لم تعد كما كنت غريباً نافراً ، فأخذت تعود إلى الدار ظهراً لتستريح ، حتى كان ذات يوم سألتنى إن كان يمكنك أن تتناول الغداء فى الدار .

ولم تمانع عمتى بالطبع ، ما دمت ستدفع ثمن ما تأكل ،

وبدأت أجهز لك طعامك كل يوم .

وهكذا طالت الفترات التى كنا نقضيها معاً ، وزادت صلة أحدنا بالآخر وكنت أجد فى معاملتك الرقيقة المهذبة خير مشجع لى على أن أزيد من رعايتى لك وعنايتى بأمرك ، فلقد كانت معاملتك شيئاً غريباً علىّ ، لأنى تعودت ألا أتلق عما أفعل شكراً ولا تقديراً .

وهكذا تطور إحساسى نحوك ، ولم أعد أرى منك مجرد ساكن أو مستأجر غريب ، وقد لا أكون مبالغة إذا قلت لك أننى بدأت أحس أن عملى الأساسى وواجبى الأول ، هو خدمتك أنت وقضاء حاجاتك ، فلشد ما كان يمتعنى أن أرضيك وأجعلك قريراً هانئاً ، ولشد ما كان يسعدنى أن أسمع منك شكراً أو أتلق منك بعض تلك الهدايا البسيطة التى بدأت تهدينى إياها .

ولِمَ لا أكون أكثر صراحة فأقول إننى بدأت أحبك ؟ ومَاذا يكون الحب أكثر من هذا الذى كنت أحس به نحوك ؟

لقد بدأت أجعل نفسى مسؤولة عنك وعن راحتك ، وعن طعامك ، وبدأت أنصب من نفسى محاسباً لك على تأخيرك ليلا ، أو على عدم تناول الغداء فى بعض الأيام ، ولم تعد عينى

تغفل حتى أطمئن على عودتك ، وكنت أصحو من النوم فجأة وأذهب إلى حجرتك لأتأكد من أنك قد أغلقت النافذة حتى لا تؤذيك رطوبة الليل ، وهكذا أضحيت على مرّ الأيام شغلى الشاغل ، وأخذت أتصرف حيالك دون أن أدرى — كما لو كنت زوجتك .

وتقبلت منى ذلك التصرف بالرضا ، وأخذت تبادلنى اهتماما باهتمام ، وعناية بعناية ، وهل أكون واهمة أو مخدوعة إذا ما قلت حباً بحب .

والواقع أنى أخذت المسألة بسهولة ، إلى حد أننى لم أفكر قط أننى قد أحبك ، بل كنت أعتقد أن إحساسى نحوك إحساس طبيعى ، وأن كل ما أشعر به نحوك ليس مبعثه إلا طيبة فى نفسى .

إنى لأذكر كيف بدأ مرضك وكيف ذهبت إلى حجرتك ، فإذا بك ما زلت راقداً فى فراشك وكان وجهك يبدو عليه بعض الشحوب فأقبلت عليك فى لهفة وسألتك : ما بك ؟

وهززت رأسك ببطء ، وعلت وجهك ابتسامة فاترة ، وقلت فى صوت ضعيف :

— لا شىء .

ومددت يدى أتحسس جبينك ، وأحسست أن هنـاك

تياراً خفياً سرى بيننا ، فأصابنى منه رعدة ، وظننت مابك علة طارئة وبرداً خفيفاً سرعان ماتبل منه . . ولكنك ازددت سوءاً فى الليل ، ولم يصبح اليوم التالى حتى كانت سطوة المرض قد ألحت واستفحل الداء ، وأتى الطبيب لعيادتك فأنبأنا أنك مصاب بالتهاب رئوى شديد وأنك فى حاجة إلى عناية كبرى .

وبدا الامتعاض على عمتى والتبرم ، وحاولت أن تلقى عن نفسها عبئك بأن ترسل إلى ذويك ، ولكنك رفضت أن تدعنا ننبىء أحداً ، وتشاورت وابنها فى التخلص منك بنقلك إلى أحد المستشفيات ، وأحسست بقلبى يغوص بين جنبى ، فما كان لى عزاء عن مرضك سوى أننى بجوارك .

وأسرعت إلى الطبيب نخلوت به على السلم ورجوته والبكاء يخنقنى أن يأمر عمتى أن تبقيك كما أنت لأن فى نقلك خطورة على حياتك وأنها ستكون مسئولة عما يصيبك من جراء النقل .

وهكذا استطعت أن أبقيك إلى جوارى ، حتى أتولى وحدى السهر عليك .

وبدأت أخوض المعركة ضد المرض الذى أمسك بخناقك .

مرّت بي الليالى وأنا لا أذوق النوم ، حتى فى تلك الهنيهات التى كنت أذهب فيها إلى فراشى لأستلق عليه خوفاً من عمتى ،كنت أنام مفتحة العينين .

كم جلست إليك فى ظلمة الليل أتحسس شعرك ، وأغرق وجهك وجبينك بالدمع والقُبَل ، دمع عين ما جفت مآقيها ، وقُبَل شفاه ما كفت لحظة عن الابتهال إلى الله لكى ينقذ حياتك .

وفى ساعة هذيان من هذيان الحمى ، علمت أنك متزوج .

لست أدرى! لمَ صدمنى هذا الخبر ؟ ولِمَ أحسست منه بطعنة أدمت فؤادىَ ؟

إنك لم تخدعنى لأننى لم أسألك عن حياتك ، ولو سألتك لما ترددت فى إخبارى بأنك متزوج بدليل أنك أنبأتنى بعد أن أبللت من مرضك أنك متزوج فعلا .

فماذا كنت أريد منك ؟ وماذا كنت آمل من ورائك ؟ أكنت آمل أن أكون زوجتك ؟ أنا نفسى لم أكن خالية . وكانت عمتى مصرة على أن أتزوج ابنها ؟ .. ماذا كنت أريد إذن ؟ .

الواقع أنى لم أفكر قط ما هى بغيتى منك ، ولم أحاول أن أسأل نفسى ماذا يمكن أن تكون نهايتى معك .

إن الإنسان عندما يجد نفسه وقد اكتنفته السعادة وسار به زورق الحياة هادئاً مسترسلا .. لا يحاول أن يسأل نفسه عن بغيته أو مقصده .. إنه يكتفى بأن يسير قرير العين ناعم البال ، ويكتفى بأن يغمض عينيه فى راحة واستسلام ، ويترك الأمور - كما يقولون - تجرى فى أعنتها دون أن يجهد نفسه بالتفكير فى غرضه أو نهايته .. إنه لايحاول أن يستبق الحاضر حتى لايفقد بهجته .. بل هو دائماً يعيش للحظته .. « لا يضيق هماً بأمس أو غد » ، ولا يحاول أن يشغل نفسه عما هو فيه من هناء ومتعة .

كذلك كنت معك .. ما حاولت أن أتعدى اللحظة التى نحن فيها ، وما حاولت أن أعرف من أنت ومن أين اتيت وإلى أين تذهب .. بل ما حاولت أن أزعج نفسى بمجرد التفكير فى أنك لابد أن تذهب ، وأنى لا بد أن أفقدك .

لم أحاول أن أفكر فى هذا بل اكتفيت بالحال الواقع ، وهو أننى معك ، وأنى أمتع برؤياك والعيش بجوارك .

لم أفكر فى أن تكون متزوجاً أو غير متزوج ، ولا خطر ببالى أن أبحث عن صلتك بالناس ، أو صلتهم بك .

لم أحسست إذاً - بعد كل هذا - بلوعة مضنية عندما علمت أنك متزوج .

لم أحسست أنى فقدت أعز ما أملك مع أنى لم أحاول من قبل أن أقنع نفسى أنى أملك هذا العزيز الذى فقدته ، وأن لى عليه حق الحزن إذا ما فقد وحق اللوعة إذا ماضاع .

لقد تملكنى يأس شديد . ومع ذلك لم يقلل يأسى من الجهد الذى كنت أبذله من أجلك ، فلقد كانت نظرات الشكر التى توجهها إلىّ فى صمت خير مشجع لى على المضى فى سبيلى ، وكان خير معين لى على احتمال اليأس . . هو تلك اللحظات التى كنت تتناول فيها يدى فتجذبها برفق وتضعها على شفتيك الملتهبتين الجافتين . وما كنت أريد جزاء خيراً من هذا .

وأخيراً ، وبعد طول جهد وسهر ، بدأ الداء يجلو ، والعلة تنقشع .

وكان أول ما فهت به ، اعترافك بصنيعى ، وتقديرك لجميلى . . علامَ الشكر ؟ وأنا لم أفعل ما فعلت ، إلا بدافع من قلبى .

وكان ثانى ما فهت به هو أنك تحبنى ، وأنك أصبحت تحس أننى جزء منك ، وطلبت منى ألا أتزوج من ابن عمتى . . وقلت لى أنك متزوج ، ولكنك ستفترق عن زوجتك . . فما أشعرتك قط بعطفها أو حبها ، وما رعت أمرك ، بل هى

امرأة مظاهر وحفلات ، امرأة براقة زائفة ، ليس فيها سوى جمال الطلاء .

ولم أجد فى طلبك منى ألا أتزوج من ابن عمى أمراً عسيراً، فقد كنت على استعداد لأن أفعل من أجلك كل شىء .

ولكن العسير حقاً ، هو أن تنفصل أنت عن زوجتك . . وأن أختطفك منها .

أنا لا أدعى أنى مثالية ، ولكنى مع ذلك لا يسعنى أن أقاوم رغبة القدر ، إنك لست لى ، ولن يصيبنى تعلق بك إلا بالندم والحسرة . . إنك على استعداد لأن تهجر الآن امرأتك من أجلى ، لأن حرارة صنيعى مازالت تلهب نفسك .

وغداً ، أو بعد غد ، عند ما تفتر هذه الحرارة ، وينسى الصنيع ، ماذا يكون من أمرك ؟ إنك لا شك ستندم على ما فعلت ؟ من طلاق امرأتك وزواجك إياى .

فما أنا إلا فتاة يتيمة ، تكاد تكون خادمة ، التقيت بها فى بنسيون ذات صيف وأنت غاضب من امرأتك ، فرضتك فى مرض ألم بك .

فهل تستحق أن تتزوجها وتهجر من أجلها امرأتك ؟

لا . . لا . . يجب ألا أنتهز فرصة ضعفك فأكون سبباً فى شقائك .

إنى راحلة من أجلك .

إنى أحبك ، وبودى لو تسللت ورقدت إلى جوارك ، وقضيت عمرى بين ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى أعلم أن هذا ليس مكانى ، بل مكان امرأة أخرى .

بودى أن أقبلك ، ولكنى أخشى الضعف ، وأخاف الانهيار ، والاستسلام . . فيجب أن أقسو على نفسى فأذهب بسرعة ! . (المخلصة . . .)

ملحوظة : وصلت الآن برقية باسمك . . إننى أخشى أن أفتحها فيكون فيها شىء خاص بك ، لا تود أن أطلع عليه ، وأخشى أن أوقظك من نومك الهادىء ، وأنت فى حاجة إلى الراحة ، سأتركها على المنضدة حتى تفتحها عند ما تستيقظ .

* * *

أمسك الرجل بالخطاب ، وقد تملكه الذهول . . أتراها حقاً قد ذهبت ؟ ! يا للفتاة المجنونة ، إنه يحبها كما لم يحب من قبل ، ولا يستطيع العيش بدونها . . كيف تصورت أنه لم يسألها الزواج إلا بدافع من الاعتراف بالجميل ؟ يا للحمقاء ! أتركته لأنها لا تود أن تختطفه من امرأته ؟ امرأته البراقة التافهة ، التى لا تكاد تحس به ، والتى لا يعنيها سوى الظهور فى الحفلات والمجتمعات ! !

وقفز الرجل من فراشه واندفع إلى العمة يسألها عن الفتاة، وبحثوا فى الدار، فإذا بالفتاة قد رحلت . . ثم بحثوا خارج الدار فلم يجدوها، أو على الأصح وجدوها قد رحلت إلى دار أخرى . . فقد عثروا على جثتها غريقة فى أحد البلاجات .

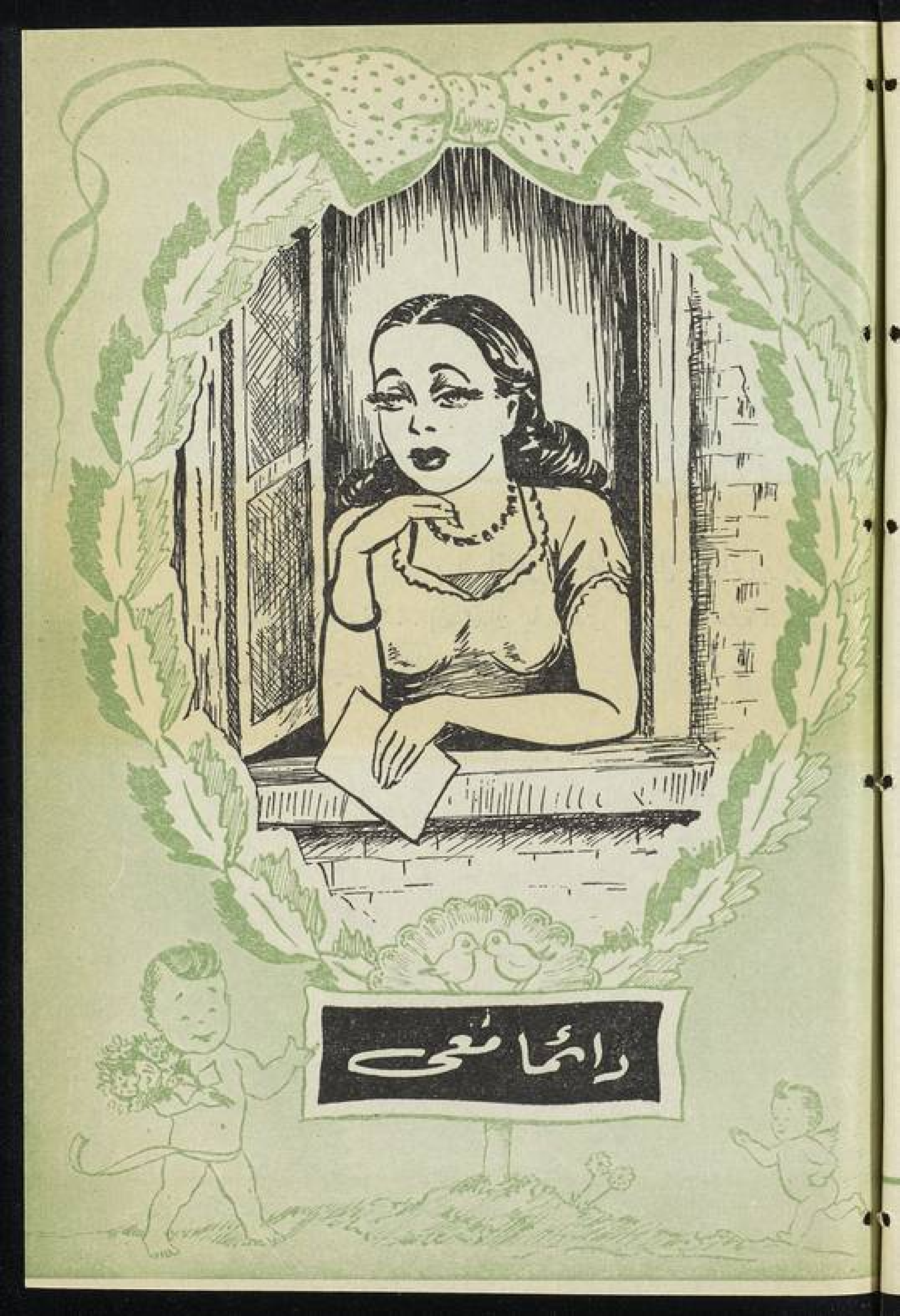
وعاد الرجل إلى حجرته، وقد تملكه اليأس، واستبد به الضيق ونظر إلى المنضدة، فوقع بصره على البرقية التى حدثته عنها الفتاة فى خطابها .

وفضها الرجل فوجدها من أخيه، ينبئه فيها أن امرأته توفيت فى حادث عربة ! .

وتنقلت عينا الرجل بين الخطاب والبرقية، وارتج عليه، فلم ينبس ببنت شفة .

لقد كانت البرقية سخرية بسيطة من سخريات القدر .




دائماً معي

هل عرفت من أنا ؟ . ولِمَ أتسلل فى جنح الليل لأجلس وحيدة فى هذه الدار الموحشة ؟ . . إن الدار يا سيدى ليست موحشة ، وإنى لا أجلس قط وحيدة . . إنه دائماً معى .

كانت ليلة من ليالى الشتاء ، قارسة البرد ، عاصفة الريح ، حالكة الظلمات .. لم تترك حجب السماء المتكاثفة فى سمائها منفذاً لشعاع .. فبدا السكون وقد اتشح بسواد أخفى معالمه ، ولم يبد منه سوى أشباح معتمة صامتة .

ووقفت وراء زجاج النافذة أرقب الطريق المقفر المظلم ، وقد تناثرت فيه مصابيح الغاز التى لم تستطع أشعتها أن تنفذ خلال الظلمة الحالكة فبدت خابية مترنحة ، ووصل إلى أذنى صفير الريح كأنه عويل وأنين ، وأحسست برجفة خفيفة تسرى فى جسدى عند ما وقع بصرى على ضوء يلوح من نافذة تبدو خلال الأشجار المتكاثفة فى حديقة الدار المقابلة .

واشتد الصفير ، وبدأت أستعيد فى ذهنى تلك الخرافات التى تروى عن الدار المهجورة ، ومايشاع من أنها مسكونة بالأرواح ، وكيف استمرت الدار خاوية عاطلة لا يقربها السكان ولا تمتد إليها يد التغيير والتبديل .

ولم أحاول قط أن أصدق شيئاً عما يشاع عن الدار المسكونة ، فما كنت لأومن بوجود العفاريت والأشباح ، وما كنت لأرى فيها إلا ضرباً من ضروب الأوهام

والخيالات ، وزاد من يقيني أنني منذ اليوم الذى انتقلت فيه إلى دارى هذه وأنا أرقب الدار المسكونة جيداً فى أوقات مختلفة من النهار والليل دون أن أبصر فيها شيئاً غير عادى ، فما لاح لى منها قط جنى ولا عفريت ، ولا رأيت فيها إلا ظلمة فوق ظلمة وصمتاً على صمت ، حتى كانت هذه الليلة عندما أبصرت ضوءاً يشع من إحدى النوافذ خلال الأشجار المتكاثفة المحيطة بالدار .

ولم أستطع أن أمنع تلك الرجفة التى سرت فى جسدى — رغم سخريتى الشديدة بكل ما يقال عن الأشباح والأرواح — وتملكنى إحساس مبهم بالخوف ، ووجدت صفير الريح وقفر الطريق والضوء المتسلل من النافذة وسط الظلمات المتكاثفة قد أحاطنى بجو من الرهبة ، ودفعنى إلى توهم وجود الشبح الذى يقطن الدار المهجورة ، وإلى تصوره وقد أضاء النور وأخذ يتنقل فى ردهاتها .

ولم يستمر هذا الشعور أكثر من ثوان معدودات عدت بعدها إلى نفسى ، وطردت من ذهنى ذلك الوهم الذى فرضته عليه الظلمة والوحشة وعصف الريح ، وخرافات الناس . وحاولت أن أجد سبباً — غير الأشباح والأرواح — لذلك النور المنبعث من الدار .

وكان أول ماخطر لى أن زائر الليل لن يكون سوى لص يحاول سرقة الدار فقد كان أثاثها ما زال مفروشاً كما هو مذ تركه صاحبه ، ووجدت أن من واجبى أن أسرع فأقبض على اللص . . أو على الأقل أنبىء الشرطة .

وترددت برهة ، فقد خشيت إن أنا حاولت إبلاغ الشرطة أن يضيع الوقت سدى ويفر اللص وقد لايكون هناك لص أصلا ، فأضع نفسى محل السخرية .

وهكذا صممت على أن أذهب وحدى إلى الدار لأرى جلية الأمر، فإن كان الزائر لصاً قبضت عليه ، وإن كان شبحاً ! وضحكت لنفسى فى سخرية !! .

ماذا يضيرنى من أن يكون شبحا ؟ . لِمَ لا أجرب لقاء الأشباح ؟!! .

وسرعان ما تناولت مسدساً صغيراً دسسته فى جيبى ، ثم هبطت إلى الطريق واجتزته متجهاً إلى باب الحديقة الحديدى ، ولم يستعص علىّ فتحه ، فقد كان مغلقاً من الداخل بمزلاج يسهل لليد الوصول إليه .

ودلفت إلى الحديقة المقفرة الموحشة ، ووقفت برهة أنصت فى الظلمة ، فلم يصل إلى أذنى سوى صوت الريح تعصف بأوراق الشجر . . فأخذت أتجه إلى مصدر الضوء ،

حتى وصلت الى نافذة فى الطابق الأول لم يحكم إغلاقها ، فتسلل من خلالها الضوء الذى استرعى بصرى فى أول الأمر .

ومددت يدى ببطء ففتحت أحد مصراعى النافذة .. ووقفت على أطراف أصابعى وأطللت برأسى فى حذر ، فلم يقع بصرى إلا على أثاث قد علته الأتربة ، وجدران قد خيمت عليها العناكب ، وبدا لى باب الحجرة يؤدى إلى صالة رحبة استطعت أن أميز فيها وقع أقدام تغدو وتروح .

وقفزت من النافذة إلى داخل الحجرة ، وسرت أسترق الخطى .. حتى وصلت إلى الباب المؤدى الى الصالة ، ومددت عنقى فى حذر شديد حتى أرى اللص وآخذه على غرة .

ورأيت اللص ، وانتابتنى حيرة شديدة ، وتملكنى الدهش . فما كان هذا الذى رأيته يمكن أن يكون لصاً .

لقد رأيت امرأة تتشح بالسواد ، تجلس فى هدوء على إحدى الأرائك أمام المدفأة التى تتأجج نيرانها ، وقد بدا لى ظهرها ، وانساب شعرها على كتفيها ، وأمسكت بكتاب أخذت تقلب صفحاته ببطء .. دون أن تظهر عليها بوادر خوف أو عجلة ، بل كانت فى جلستها بادية الطمأنينة كأنها ربة الدار .

ومرت برهة وأنا ثابت فى مكانى ، حائر ، دهش .

من تـكون المرأة ؟!

وللمرة الثانية أحسست برجفة تسرى فى بدنى . وعاودتنى — على غير إرادة منى — فـكرة الأشباح .

أية امرأة تلك التى تجازف بالجلوس فى هذه الدار المهجورة المسكونة ، وحيدة فى هذه الساعة من الليل ؟ .

ولِمَ . ؟ لكى تتسلى بقراءة كتاب . ؟!

ووجدت كل سخريتى من الأشباح قد تبددت ، وحل محلها خوف شديد .

لاشك أن هذه المرأة شبح . . إنها هى الروح التى تسكن الدار .

وبدأت أفـكر فى أن أعود من حيث أتيت . . حقيقـة إنى لست جباناً ، ولـكنى مع ذلك لم يكن بى شديد لهفة على لقاء الأشباح ، حتى ولو كنّ نساء .

وهممت بالتراجع . . عندما عصفت الريح فقرعت النافذة وأبصرت بالمرأة تنتفض فى ذعر ، وتلتفت وراءها . . فيقع بصرها علىّ .

ومضت برهة وكلانا يحملق فى الآخر فى خوف ودهشة . حتى استطعت أن أتمالك وأتماسك ، وأستعيد بعض شجاعتى ورباطة جاشى . وأطرد من ذهنى كل ما تسلل إليه من أوهام

عن الأشباح والأرواح ، وأقنع نفسى بأن المخلوقة التى تنتفض أمامى من الخوف لا يمكن أن تكون سوى آدمية من دم ولحم .

وهكذا بدأت أستمد الشجاعة من خوفها ، فقد أوحى إلىّ منظرها المرتعد المرتجف بأنها دخيلة على الدار ، وأنها قد تسللت إليها فى بهمة الليل ، وأن ظهورى أمامها فجأة قد أفزعها ، وأظهرها كمجرمة ضبطت متلبسة بجريمة .

ولكن أية جريمة ؟ . جريمة الدخول فى دار مسكونة مهجورة لا يجرؤ على أن يدخلها إنسان ؟ .

جريمة الجلوس فى دعة وطمأنينة ؟ . . جريمة قراءة كتاب ؟ . .

ماذا تفعل المرأة ؟ . . ومن هى ؟ . وما صلتها بالدار ؟ وما . . وما ؟ . .

وأخذت الأسئلة تتزاحم على رأسى ، وانطلق أولها من بين شفتى ، فسألتها فى حيرة ودهش :

— ماذا تفعلين ؟ .

ولم تجب المرأة على سؤالى ، بل أخذت تسألنى بصوت خفيض مبحوح :

— من أنت ؟ .

ـ خبريني أولا .. من أنت ؟ وماذا يدفعك إلى التسلل إلى هذا المكان الموحش فى هذه الليلة العاصفة ؟. أهو مجرد الرغبة فى قراءة كتاب ؟

وكانت لهجة السخرية بادية فى سؤالى ، ومع ذلك فقد وجدتها تهز رأسها بالموافقة ، كأنما قد جاءت حقاً لقراءة كتاب.

وساد الصمت برهة ، ثم وجدتها تتساءل مرة أخرى بصوتها الخفيض المرتعد :

ـ من أنت ؟. وماذا تريد منى ؟.

ووجدت فى لهجتها لكنة غريبة ، لا توحى بأنها مصرية صميمة ، وكأنها من أحد الأقطار الشقيقة.

وبدأ يتسرب إلى نفسى شعور بالعطف عليها ، وأيقنت أن مثلها لايمكن أن يضمر شراً ، وأن الإنسان لايملك أن يوجس منها خيفة.

فأجبتها فى رقة ظاهرة محاولا طمأنينتها :

ـ إنى أقطن فى الدار المقابلة وقد استرعى انتباهى ضوء يشع من إحدى النوافذ ، وأنا أعلم أن الدار مهجورة لايقطنها أحد .. اللهم إلا ذلك الشبح الذى يزعمون أنه يسكنها ، فلم أشك فى أن زائر الليل لص .. أو . . .

ثم أردفت ضاحكاً :

ــ أو شبح . . فلما تسللت إلى الدار وجدتك أنت . ! فأيهما تكونين ؟.

ولكن المرأة لم تضحك . . بل هزت رأسها ببطء ، وأجابت فى صوت خافت :

ــ أنا لم أكن قط لصة ، أتقول إنهم يزعمون أن الدار يسكنها شبح ؟.

ــ أجل .

ــ إذن فأنا لاشك ذلك الشبح ! .

وأطرقت برأسها برهة ، ثم أردفت قائلة :

ــ أجل . . لا أظن أن هناك شبحاً فى الدار سواى .

واقتربت منها وتأملتها فوجدتها امرأة صغيرة . . خير ما توصف به هو أنها رقيقة ، رقيقة فى كل شىء ، رقيقة الوجه ، رقيقة الجسد . . يبدو فى قسماتها حزن دفين ولوعة مكبوتة ، يلوح على محياها شىء من الشرود والذهول .

وعادت الأسئلة تتزاحم فى ذهنى مرة أخرى . . إنى لم أعرف بعد من تكون المرأة ؟ !. وما سبب زيارتها للدار خفية ؟

وعدت أسأل :

ــ ولكنك لم تقولى بعد من أنتِ ، وماذا تفعلين ؟ .

ــ أما من أنَا ؟ . فلا أظن أن مجرد ذكر اسمى سيعنى لديك شيئاً ، إنى امرأة غريبة ضالة ، أما ماذا أفعل ؟ . فإنى لا أفعل أكثر مما رأيت ! أزور الدار خلسة ، لأجلس على الأريكة ، وأقرأ ، وأفكر . . ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك ؟. هذا هو كل ماتبقى لى منه ؟ .

وأبصرت بسحابة ألم قد خيمت على وجهها ، ووجدتها تضغط على شفتيها كأنها تقاوم البكاء ، ولمحت فى عينيها طبقة لامعة من دمع متحجر .

وازداد بى الشعور بالعطف على المرأة ، ووجدتنى أنسى كل ما أتيت لأجله . وأنسى الظروف المحيطة بى ، ولم أعد أذكر سوى أنى أمام امرأة منكوبة تتألم ، تفيض نفسها بالمرارة والحزن ، فأمسكت بيدها وقدتها برفق فأجلستها على الأريكة كما كانت ، وقلت لها فى عطف شديد :

ــ لا تخشى شيئاً . . حدثينى عما يحزنك ويوجع قلبك؟ نبئينى لِمَ تتسللين فى جنح الظلام لتجاسى وحيدة فى هذه الدار الموحشة . . أخرجى بعض ما فى صدرك فقد أستطيع معاونتك . . ثقى بى .

ومضت برهة والمرأة صامتة ، وقد أطرقت برأسها وأخذت

تقلب صفحات الكتاب ، وبدا عليها ذهول شديد . . حتى لقد خيـّل إلىّ أنها أصيبت بجنون .

وأحسست بالرجفة مرة أخرى تسرى فى بدنى ، فأنا أخاف المجانين أكثر مما أخاف الأشباح .

ولكن الخوف لم يطل فقد زفرت المرأة زفرة حارة ورفعت إلىّ وجهاً حزيناً وقالت فى صوت خافت :

— لمَ تريد أن تثير الحزن الدفين ، وتوقظ الذكرى الهاجعة؟ . أنا لا أعرفك ، وأنت لا تعرفنى ، لِمَ تريد أن تسمع قصة مجهولة ؟ . لقد كنت مجهولة دائماً ، حتى منه كنت مجهولة .

أجل . . إنه ما كتب إلىّ إلا قائلا « أيتها المجهولة » . لقد كان كلانا مجهولا من صاحبه ، فما رأى أحدنا الآخر قط ، ومع ذلك فما عرفت إنساناً فى حياتى كما عرفته . !

كنت أعرف كل شىء عنه : هذه الدار . . كنت أعرفها قبل أن أراها ، قطعة قطعة . . كنت أعرف موقع المدفأة ، ومواضع الصور . . كنت أعرف جلسته على هذه الأريكة فى سكون الليل . . لقد كتب لى عن كل هذا . . لقد وصف لى الحديقة ووصف لى الطريق ووصف لى كل ما حوله ، بالتفصيل والدقة . . لقد عشنا معاً ، رغم أننا لم نلتق .

كتب لى عن نفسه . . عما يحب وما يكره ، وما يأمل وما يرجو . . كتب لى عن طباعه وخصاله ، وعن محاسنه ومساوئه .

كتب لى عن حبه .

أجل يا سيدى . . حبه لى ، أو كما كان يسميه : حب المجهول .

كيف بدأ الأمر بيننا ؟ . وكيف تطور ؟

من كان يتصور إن هذا شيء يمكن حدوثه ؟ . من كان يتصور أن هذا الحب العميق يمكن أن يحدث بيننا ؟ . بين اثنين لم يلتقيا قط ، ولا كانا يأملان فى لقاء . . اثنين تمزقت بينهما أسباب الوصال وبعدت بينهما الشقة ، ونأى المزار !!

من كان يصدق أن الأمر بيننا سينقلب إلى هوى جارف وقد كان أحدنا فى القاهرة والآخر فى بغداد ! .

بدأ الأمر من جانبي ، أنا الفتاة الشرقية المحافظة المنطوية فى عقر دارها ، التى تعرف أكثر مما ترى ، والتى تحس فتكبت إحساسها وتطوى مشاعرها . . بدأ الأمر بلقاء بينى وبينه ، أنا وحيدة فى حجرتى وهو يطل علىّ من سطور إحدى قصصه .

أجل . . لقد التقيت وإياه فى عالم الوهم ، عندما بدأ

يهزّ مشاعرى بإحساسه المرهف ، ويتسلل إلى نفسى بما لم يستطع إنسان من قبل أن يفعل .

كنت أقرأ له ، فأحس كأنه يكتب لى . . لى وحدى .

لقد أحببته من كتابته ، حباً لا أمل لى فيه ، ولا رجاء لى منه ، فما كنت أطمع قط فى مجرد رؤيته أو لقائه ، وأنا واحدة من بين آلاف قرائه . . بينى وبينه مئات الأميال .

وبدأت أنتظر كتابته كصاد فى الصحراء يتلهف على قطرة ماء ، وبدأت أنطوى على نفسى ، وأصابنى مثل ذهول العشاق وشرودهم ، دون أن أجسر أن أفضى لأقرب الناس إلىّ بشىء من مشاعرى خشية أن أتهم بالجنون . . كيف أجسر على أن أقول لهم إنى أحب إنساناً لم أره ، ولا يحس هو وجودى ؟ .

ودفعنى طيش الشباب مرة أن أكتب إليه ، ومرت بى الأيام ، وقد تملكنى قلق شديد . . أنتظر فى لهفة وخشية كما ينتظر السجين حكماً بالإفراج أو الإعدام . . حتى وصل ردّه إلىّ ، فكان فيه شفاء نفسى ، وبلسم روحى .

كان ردّه رقيقاً عطوفاً زادنى تعلقاً به وحباً له ، وأشعل فى نفسى جذوة الأمل فيما لا أمل فيه .

وكتبت له مرة أخرى ، وردّ علىّ ، وثالثة ، ورابعة ، حتى وصل إلىّ ردّه ذات مرة يقول فيه :

« أيتها المجهولة ، من أنت ؟. وكيف أنتِ ؟. لِمَ تقولين إن حبي شرد ذهنك وحطّم قلبك .؟ لِمَ تتحدثين عن اليأس ؟. لِمَ لا تجعلين من حب المجهول نبراساً يهديك سواء السبيل ، هذا الحب الذى لم تلتق فيه الأجساد ، بل تلاقت فيه الروح بالروح ، ما أقدره على أن يضىء لنا ظلمات الحياة .

« أيتها المجهولة ، أكتبى إلىّ كثيراً ، إنى أحب كتابتك وأحب حبك »

ومرت بي الأيام وأنا أرى الحياة مشرقة باسمة ، لا عمل لى إلا التفكير فيه ، أو قراءة رسائله أو كتبه .. أخلو بها فى حجرتى ، أو أقف فى النافذة فأرقب الأفق البعيد وقد أمسكت أحد كتبه فى يدى ، وقد شرد بى الذهن وأخذت أتصوره مقبلا علىّ من العالم البعيد المجهول ، ويقترب حتى يصل إلىّ فيحتوينى بين ذراعيه ، ويضمنى إلى صدره .. ثم يلصق بشفتى شفتيه .. يا للأمل الحلو ، والأمانى العذبة !.

وبدأ طمع العشاق يشقينى ، ولم أعد أقنع منه بمجرد الرسائل ، بل بت أتوق شوقاً إلى لقائه .

وعصف بي الحنين ، وأقض الشوق مضجعى .. دون أن

تلوح لى بارقة أمل ، حتى ولو كاذبة .. أعلل بها نفسى !

كنت يائسة من لقاءه ، ولست أشك أن فى اليأس نوعاً من الراحة .. راحة الاستقرار على حال والاطمئنان إلى وضع مهما مر مذاقه وملح طعمه ، ولكن مع ذلك لم أشعر قط براحة اليأس ، فإن يأس المحبين لا يحمل راحة ، لأنه لا يكون قط حازماً قاطعا ، فإن جنون الحب لا يفتأ يبعث فى نفوس المحبين نوعاً من الأمل .. الأمل المستحيل والرجاء الغير معقول ، فإذا بهم يتشبثون بأوهى خيط ، ويتعلقون بأضعف بارقة ، ويتعللون بما هم أدرى من سواهم بمبلغ سرابيته ومدى زيفه ، ويأبون إلا أن يحرموا نفوسهم من راحة اليأس .

وهكذا كنت أمنى النفس بلقاه .. مع علمى بأنى من لقاءه على مدى الجوزاء ، ومع يقينى بأن كل ما بيننا لا يمكن أن يتعدى بحال من الأحوال مجرد حب على ورق ، وغرام فى السطور .

وظللت أطوى حبى فى الجوانح ، وأكدسه بين الضلوع . أمنى النفس ، بلقاء المجهول .. وأدعو الله أن يرسل من لدنه معجزة تتيح لنا اللقاء .

وفى ذات يوم بسم القدر وحدثت المعجزة ، وتحقق ما سميته بالأمل المستحيل والرجاء غير المعقول .

وإذا بأبي ينقل للعمل فى المفوضية العراقية فى القاهرة ، ووجدت نفسى أوشك أن أجن من فرط الغبطة .

ومرت بى الليالى ، قبل أن نرحل إلى القاهرة وأناساهرة لايغمض لى جفن ، فقد كانت أعصابى مرهفة متوترة .

لا أكاد أصدق أنى حقاً سأذهب إلى القاهرة .. بل كان يخيل لى أن المسألة كلها من صنع الأوهام .

° ° °

وصمتت المرأة برهة ، وسقط رأسها على صدرها ، ومرت فترة سكون بدت كأنما تحاول أن تستعيد فيها أنفاسها ثم أردفت قائلة :

ـــ ووصلنا القاهرة ، وأنا أكذب نفسى فى كل ما أرى وأسائل من حولى فى نزق وطيش : أحقاً قد وصلنا إلى القاهرة !

كان كثيراً علىّ أن أجد أحلامى الهوجاء المجنونة تتحقق فى غمضة عين فتضحى حقائق ملموسة ، وأن أجد نفسى قد بت على قيد خطوات من الحبيب المجهول .. الذى كنت أتخيله فى أقصى العالم ، وراء المريخ أو تحت القمر .

وأحسست بالشوق يزداد ، والحنين يتضاعف .. بعد أن أصبحت على مقربة منه ، لا يفصلنى عنه سوى دقائق معدودات .

وانتهزت أول فرصة للخروج وحيدة .. فذهبت لزيارته فى داره التى لم يصعب علىّ الوصول إليها من فرط ما وصفها لى، وعزمت على مفاجأته بلقاء لا يخطر له على بال .

وعادت المرأة إلى صمتها مرة أخرى ، وطال الصمت فى هذه المرة .. حتى لقد رحت أستحثها بقولى :

— ثم .. ماذا حدث ؟

فقالت وكأنما هى تفيق من سبات عميق :

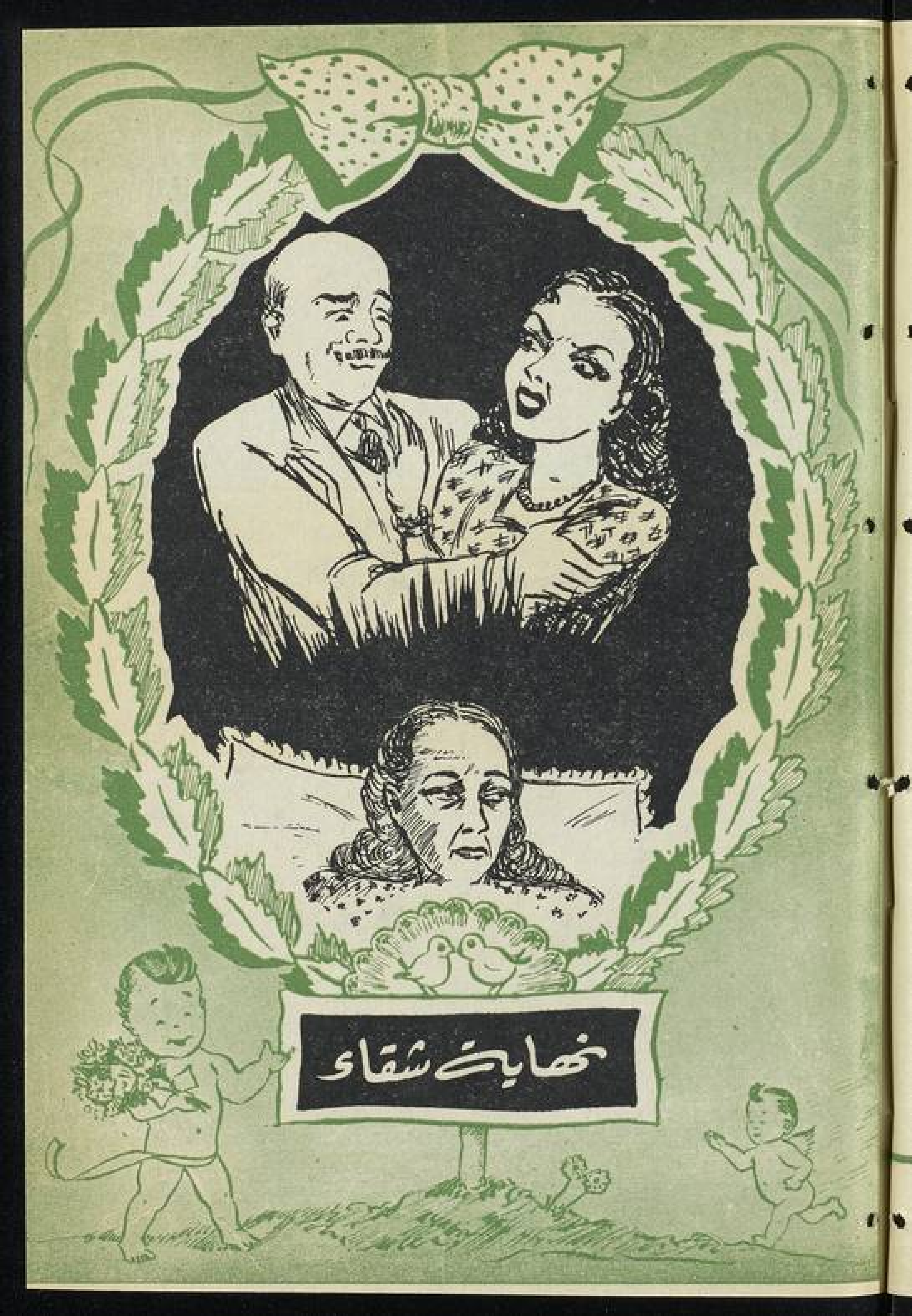
— لقد فاجأنى هو بلقاء قبل أن أفاجئه . لقاء لم يخطر لى على بال قط .. لقاء ما أقساه وما أمره .. لقد وصلت إلى الدار ، فوجدته خارجاً منها .. ناديته فلم يسمع .. صحت به فلم يأبه إلىّ .. لقد كان يا سيدى محمولا على الأعناق مسجى فى نعشه .. لا يسمع لأحد ، ولا يسمعه أحد .

لقد أصابه مرض لم يمهله حتى أراه .

كان هذا يا سيدى هو أول لقاء بيننا ، وآخر لقاء ..

هل عرفت من أنا ، ولِمَ أتسلل فى جنح الليل لأجلس وحيدة فى هذه الدار الموحشَة ؟

إن الدار يا سيدى ليست موحشة ، وإنى لا أجلس قط وحيدة .. إنه دائماً معى . !


نهاية شقاء

كلهم يريدون الثمن . . من شفتى ، ومن جسدى .

كلهم ينظرون إلىّ بأجسادهم .. لقد تعاون جمالى وشرورهم على الإيقاع بى .

لا تنكر قولى . . فأنت أولهم .

كانت الفتاة حديثة العهد بتعلم السواقة ، وكانت لا تفتأ تقرع الكلاكس كلما لاح لها عابر طريق على بعد مئات الأمتار ، ولم تكن تعترف بأن الكلاكس يستطيع وحده أن يقوم بواجب الإنذار ، فكانت تقدم إليه المعونة بصوتها ، صارخة فى المارة أن يحذروا وأن يحاسبوا ، وأن يأخذوا بالهم ، ويفتحوا أعينهم ، لاعنة أباهم إذا استدعى الأمر . وكانت لا تفتأ تجذب الفتى الجالس بجوارها من ذراعه بين آونة وأخرى سائلة إياه فى كل تقاطع مرور : «أين العسكرى ؟» .. وهل الطريق مفتوح أم لا ؟.

وسلم الله ، واستطاعا أن يجتازا زحام البلد بسلام ، ووصلا إلى كوبرى قصر النيل ، ولفحت وجهيهما موجة من نسيم الليل رطبة ندية ، فأحسا منها بشىء من الانتعاش ، وأزالت عنهما بعض ما أحدثه ضجيج المدينة من توتر وإرهاق .

واجتازا كوبرى الجلاء ، ولفا حول الميدان ، ثم دلفا فى الطريق الموازى للنيل وسمعها تقول ضاحكة :

ــ هذا طريق العشاق .. دعنا نجتازه بسرعة ، حتى لا أتهم فيك .

ومد ذراعه فلفه حول كتفيها وأخذ يتحسس بأصابعه ذراعها العارى ، ووجدها تحاول التخلص من ذراعه فأبعده عنها وهز رأسه قائلا :

ـ أنت مخلوقة عجيبة ، ألم أقل لك أنك قلب حول وأنك لست فقط إنسانة مزدوجة الشخصية ، بل متعددتها ، إنك عشر نساء فى امرأة . . هل تذكرين تلك الليلة التى كنا ننطلق فيها فى طريق الهرم ، وقد جلست بجوارك صامتاً ساكناً ، فإذا بك تسألينى فى صوت يفيض رقة وحنواً أن أحيطك بذراعى . . كنت يومذاك مرهفة الحس صخابة الحشا . كنت خير ما يمكن أن تكون امرأة ولهانة عاشقة . كنت كتلة أحاسيس ومشاعر .

ـ والليلة ؟!

ـ الليلة ! ليس بك من امرأة الليلة الماضية صلة ولا شبه ، فإنى أراك اليوم كتلة شر وأذى . . فتاة غجرية « شرّانية » ، أبعد ما تكون عن الحب والوله .

وانطلقت منها ضحكة عالية وأدارت رأسها ومدت شفتيها إليه ، وقالت آمرة :

ـ خذ ! . .

ولم تكن هذه الطريقة فى التقبيل لترضى خياله العاشق

فهمَّ بأن يرفض منحتها ، ولـكنه فـكّر فى أنها خير من عدمها ، فأسرع باقتناصها قبل أن تدير وجهها لتلتفت إلى الطريق .

واجتازا زحام الجيزة ، وعبرا النفق ، وبدأت العربة تنطلق فى شارع الهرم .

وأخذ يقترب منها ملصقاً جسده بجسدها فقالت محذرة :

— وبعدين ؟

ونظر إليها فى ضيق ، وأدهشه منها هذا الجمود ، ثم مدّ شفتيه فألصقهما بشفتيهـا ، ولم يحس فيهما حرارة القبل .. فانتزعهما بسرعة ، وقال متبرماً :

— ما بك ؟

— لا شيء ، أوَ لا بد من التقبيل ؟

— إذا كنت لا أقبِّلك وقد ضمتنا وحدنا عربة فى طريق الهرم ، فمتى أقبلك إذن ؟

— لا تـكن كصبية المدارس ، دعنا نـكون أعمق من ذلك .. أصدقاء .

وأحس الفتى بخجل من قول الفتاة ، وابتعد عنها ، وقال كأنما يحدث نفسه :

— أنت لا شك بلهاء ، تريدين أن تستبدلى بالعشق صداقة . إن الأصدقاء كثيرون .. تستطيعين أن تحصلى عليهم فى كل

وقت .. أما العشاق ....

وندت عن شفتيها ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية وقاطعته متسائلة :

ــ الأصدقاء كثيرون ! أنت واهم .. كلهم عشاق .. كلهم مثلك يريدون القُبَل .. وما بعد القُبَل .. ما رأيت منهم صديقاً قط .

ولم يجب الفتى ، فقد بدا عليه الوجوم والإطراق فأردفت قائلة :

ــ ألم أقل لك .. ها قد نأيت عنى لأنى أرفض أن أعطيك شفتى ، يا للرجال ! كلكم كذلك !

وكانت ظلال أشجار الكافور والبانسيانس تنعكس على العربة من أضواء الطريق ، الواحدة تلو الأخرى .. وأخذت الظلال تتباطأ ، حتى استقر أحدها على العربة ، وأوقفت الفتاة الماكينة ، وساد من حولهما سكون عميق .

وهمست الفتاة متسائلة :

ــ وبعد ؟ !

واقترب منها وأحاطها بذراعه برفق وحنان ، فأسندت رأسها على كتفه ، وندت عنها تنهيدة حارة عميقة بدت كأنها انطلقت من أعماق صدرها .

وألصق خده بخدها ، وأحس بنفسه تتسامى ، ومشاعره ترهف ، وبتيار جارف من الحنين يطويه بين أمواجه ، وسألها فى رفق :

ـ مابك ، أنتِ الليلة حزينة ؟.

ـ الليلة فقط ؟

ـ على الأقل . . هذا مايبدو لى !

ـ أنا ، هو أنا ، الليلة ، وغير الليلة ، دائماً حزينة . . كل ما فى الأمر أن الحجب الزائفة من المرح التى أكسو بها نفسى ، تعجز أحياناً عن سترها ، فتبدو على حقيقتها . والليلة أحس أن الحجب قد هتكت ، لقد أجهدنى اصطناع السعادة والمرح . . دعنى أطلق نفسى من إسارها الزائف برهة . . دعنى أتمتع بالحزن .

ـ أنتِ تقولين هذا ؟

وتذكر قولها . . لنكن أعمق من ذلك ، دعنا نتحدث . . ولنكن أصدقاء . . وخيل إليه أنها بدأت تكشف نفسها على حقيقتها .

إن الفتاة تبدو كأنها ترزح تحت أعباء حزن مرير .

وا عجبا ! ماذا يمكن أن يحزن مثلها . . هذه الفتاة السطحية المرحة الضاحكة من أين لها الشقاء وهى ترتع فى بحبوحة

من الحياة التافهة : سينما ، ومرح ، وضحك ، وجروبى ، وشبرد ، وسهرات راقصة ، وأحضان ، وقُبلَات . . ماذا يريد مثلها من الحياة أكثر من ذلك !

ولم يشعر إلا وهو يوجه إليها هذا السؤال :

— ماذا تريدين من الحياة ؟ . ما هو هدفك الذى تبغين الوصول إليه ؟ .

وهزت رأسها فى حيرة ولم تجبه ، فعاد يقول :

— هل تريدين بيتاً وزوجاً وأولاداً ، وحياة مستقرة هادئة ؟ لا يبدو لى أنك من النوع الذى يهدف فى الحياة إلى مثل هذا ! .

وأجابته فى صوت خافت :

— ما هدفت إلى هذا قط ، إن تجاربى فى الحياة ، تجعلنى لا أتعلق بهذه الأوهام ، فإنها تبدو لى مجرد سراب ، من العبث التعلق به .

— ماذا تريدين إذن ، وماذا يحزنك ؟

— يحزننى أن الحياة تفرض علينا أشياء لا نستطيع إلا الرضوخ لها . يحزننى أن تجعل منى الحياة هذه المخلوقة التى تراها أمامك ، وألا أجعل من نفسى ما كنت أود أن أكونه . . ما حيلتنا فى الحياة ، ونحن نتخبط فيها كريش فى مهب الريح

لا سيطرة لنا على مصيرنا ، ولا سلطان لنا على أنفسنا . . هل تفهمنى ؟

ــ أفهمك تماماً .

قالها على غير إرادة منه ، فما كان فى الواقع قد فهمها بعد وإن كانت به رغبة جارفة فى فهمها ، ولهفة على أن يسمع منها حديثها عن نفسها . . وأردفت الفتاة قائلة :

ــ إنى فى حاجة إلى صديق يفهمنى ، صديق أسر له بخبيئة نفسى ، وألق إليه ببعض ما يعتمل فى صدرى . صديق لا يريد لصداقته ثمناً ، ولا يبغى بإخلاصه مقابلا ، من الأحضان والقُبَل . . هل فهمت ؟

وسرى إلى نفس الفتى إحساس عجيب بالخجل من نفسه . لقد بدت الفتاة له أعمق كثيراً مما يتصور ، إنها تبغى منه أكثر مما تبغى من سواه ، تبغى شيئاً أسمى مما يستطيع الإنسان منحه بسهولة ، تبغى الصداقة فى حياة خلت إلا من تجار العشق .

وأمسك يدها فضغط عليها ضغطاً خفيفاً ، وقال :

ــ استمرى .

وتركت الفتاة يدها فى يده ، وساد الصمت برهة وأطرقت برأسها واجمة ، وبدت كأنما قد شرد بها الذهن وراحت فى تفكير عميق ، وعاد صاحبها يستحثها على الحديث :

– تكلمى ، حدثينى عن نفسك كثيراً . أفرغى ما فى صدرك وأشركينى فى حملك عله يخف عنك بعض الشىء ، جرّبى صداقتى ، فقد أفلح فى أن أكون صديقاً ، بعد أن فشلت فى أن أكون عشيقاً .

– إن العلة فى نفسى ، أو على الأصح فى ذلك التناقض بين طريقة خلقى وبين الظروف التى أحاطت بى ، والتباعد بين حقيقتى ومظهرى . إن العلة كائنة فى أن التجارب التى مرت بى جعلت منى أكبر مما أبدو . . إنى لا أريد ما أستطيع الحصول عليه ، ولا أستطيع أن أحصل على شىء مما أريد .

إنى حائرة أتخبط فى دنيا حالكة الدياجير .

إنى أقوم بدور فى الحياة لا أجيده ولا أحذقه ، دور فرض علىّ فرضاً ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع رفضه ، فنحن على مسرح الحياة لا نملك الرفض ، فإما الامتثال وإما الخروج . وكثيراً ما فكرت فى الخروج ، ولكنى لم أجد لدىّ الجرأة الكافية لذلك . ومرّت بى الأيام ، وأنا لا أملك سوى الصبر والاستسلام .

وأحس الفتى كأن نفسه تذوب وتتحلل ، ورفع يد الفتاة فى يده ، فتحسسها بشفتيه كأنه عابد متبتل ، ومر على شعرها برفق وحنو كأنه أب يحنو على ابنته ، وهمس فى أذنها :

– استمری . . تحدثی .

– عم أتحدث ! وأنا لا أعرف كيف أبدأ الحديث . . إن الأفكار فى نفسى مشوشة مختلطة ، وصور الماضى مزدحمة متكأكئة ، إنى أبصر إحداها ، صورة باهتة شاحبة ، تطل من الماضى البعيد . . صورة طفلة بائسة ، ولدت فى جو ملىء بالبغض والكراهية ، والشقاق والخصام . كان أول ما وعته فى حياتها هو انفصال أمها عن أبيها ، فحرمت فى طفولتها حنان الأم ، وعصفت بها ريح البغضاء ، وفقدت أمها وهى ما زالت على قيد الحياة .

وتختفى الصورة لأبصر بعدها صورة أخرى ، أشد من الأولى ظلمة ووحشة ، صورة الطفلة وقد فقدت أباها ووقفت فى بيداء الحياة وحيدة ضالة ، بلا عائل ولا معين ، حتى امتدت إليها يد أمها بعد طول فرقة .

وتتعاقب الصور على ذهنى ليس بإحداها شىء يسر ، إن الطفلة قد شبت فأصبحت صبية ، تعيش فى بيت أمها مع الرجل الغريب ، الذى أبغضته منذ أن وقع عليه بصرها .

لقد كنت فى الدار غريبة عن كل إنسان ، حتى عن أمى ، ومع ذلك فما كنت أملك سوى البقاء ، فقد كان لا بد لى أن آكل وأنام ، فتلك أشياء لا بد أن يفعلها الإنسان ليحيا . .

ومع ذلك فما أحسست قط أنني أحيا فعلا .. أجل .. إن الإنسان لا يحيا لمجرد كونه يتنفس ويتحرك .. هذه ليست مظاهر الحياة . إن الإنسان لا يعتبر حياً إلا إذا شعر به من حوله ، وشعر هو بمن حوله ، وإلا إذا أحبوه وأحبهم ، وهذا لم يتوفر لى ، فما كان هناك من يحس بى ، وما كنت بدورى أحس بأحد .

ومن سخرية الحياة أن تفجع الإنسان بمصاب فيظل يرزح تحت عبئه ، ويتمنى لو رفعته عنه ، فإذا ما رفعته عنه ، رفعته بطريقة يتمنى لو أبقته له ، ويشعر أن بقاءه خير من زواله ، وأن المصاب كان نعمة من نعم الحياة .

لقد قلت لك أن مبعث شقائى هو شعورى بأننى لا أحيا ، وأنه ليس هناك من يحس بى .

حتى كان ذات يوم وجدت فيه أن هناك من بدأ يحس بى فتمنيت لو أفقد نصف عمرى ، وأبقى كما كنت لا يحس بى أى إنسان .

كان أول من أحس بى ، ذلك الرجل البغيض الغريب ، رب الدار وولىّ نعمتنا : أمى وأنا .. ولقد بدا إحساسه بى عند ما دخلت فى دور النضج فاستوى منى الساق وبرز الصدر .

وبدأت أحس من نظراته المختلسة أنه أحس بى ، وكنت

أكره نظراته ، رغم أنها كانت تحمل ذلك الشىء الذى طالما افتقدته ، وهو الشعور بأنى مخلوقة يحس بها الناس .

ومرت الأيام وأنا أحس بإقباله علىّ يزداد ، وكنت أشتم فى الجو رائحة الخطر ولكنى لم أملك له رداً . . وماذا تستطيع عاجزة مثلى أن تفعل أمام هذا الوحش البغيض .

وزاد الموقف حرجاً ، مرض أمى ، واضطرارى إلى أن أتخذ فى الدار مكاناً يقربنى إليه ، ويتيح له كثيراً أن يخلو بى .

وفى ذات يوم كنت أضطجع على إحدى الأرائك عندما أحسست به يتسلل إلى الحجرة ، وتبينت فى عينيه شيئاً . . لا يصعب على المرأة أن تتبينه فى عينى الرجل ، وجلست فى ركن الأريكة ، فاتخذ مجلسه بجوارى ، وبدأ يتحسس يدى وذراعى ، وأنا أحس بقشعريرة تسرى فى جسدى ولا أدرى كيف أصده وأردعه . . وأخيراً امتدت يده إلى وجهى مقرباً فمه من فمى ، ووددت لو صفعته ، ولكنى كنت أخشى العواقب ، فجذبت ذراعى برفق وأشحت بوجهى .

وبدا عليه الغضب ، وسمعته يزمجر بكلمات مهدداً وغادر الغرفة ثائراً .

ولم يكن هذا نهاية الأمر ، بل كان بدايته ، لقد أصرّ الرجل على أن يبلغ ما فى نفسه ، ووجدتنى فى مأزق شديد

الحرج ، وخاصة أن أمى أضحت طريحة الفراش ، وكان الرجل هو كل عمادنا فى الحياة ، وبدأ يهددنى بأنه سيطردنى وإياها إن لم أرضخ له ، أو على حد قوله : إن لم أعقل .

وأخيراً ، عقلت . . واستسلمت له .

لا تتهمنى بالضعف ولا بالجنون ، لقد فكرت كثيراً وقلبت الأمر على كل وجه من وجوهه . . فلم أجد خيراً من الاستسلام . ووجدت فيه — كما قال الرجل — عز العقل ! .

فكرت فى أن أنبىء أمى ، وفى أن نترك الدار سوياً ، ولكنى خشيت عليها من وقع الصدمة وخشيت أيضاً أن يقنعها الرجل بأننى حاولت التغرير به وأننى — لا هو — أصل الشر ومنبع الفساد .

فكرت فى الهرب ، ولكنى خفت أن يثأر الرجل لنفسه من أمى ، ثم ما فائدة الهرب وأين أذهب ، وماذا أفعل ؟ لقد أقنعتنى التجارب بعد ذلك ، بأنى لو هربت لكنت أكثر الناس جنوناً .

إن الحياة كلها ذئاب . . ما فائدة أن أهرب من ذئب لألقى نفسى بين أحضان غيره من الذئاب ؟ .

كلهم يريدون الثمن ، من شفتى ومن جسدى .

كلهم ينظرون إلىّ بأجسادهم ، لقد تعاون جمالى وشرورهم على الإيقاع بى .

لا تنكر قولى ، فأنت أولهم .

سل نفسك لِمَ أتيت بى إلى هنا ، وما مرادك منى . . ؟ وماذا تشتهى . ؟ وبم تمنى نفسك . ؟ بالقبلات والأحضان .! والتمتع بذلك الجسد الناضج الفائر .

أو تنكر هذا ؟

إنى أحيا حياة بغيضة . . حياة تكرهنى على خيانة أمى . . ومع من ؟ . مع إنسان أتمنى قتله . إن الناس يفعلون المنكر لينالوا منه متعة ، ويرتكبون الإثم ليربحوا منه لذة . . أما أنا . . فإنى آتى المنكر لأجنى المرارة والحزن والألم .

هذا هو الدور البغيض ، الذى أكرهتنى الحياة على أن أقوم به على مسرحها ، ليتنى أستطيع أن أغادرها ؟ !

وساد الصمت .

° ° °

ونظر إليها الفتى فلمح فى عينيها طبقة لامعة تترقرق ، ووجدها تضغط على شفتيها .

وبعد برهة كانت العربة تشق طريقها عائدة ، وقد شمل الاثنين صمت عميق .

° ° °

ومرت بضعة أيام ، وليس هناك فى رأس الفتى إلا فكرة واحدة : . هى إنقاذ الفتاة ، وتخليصها ـ على حد قولها ـ من

ذلك الدور البغيض الذى أكرهتها الحياة على أن تقوم به .

وقلب الأمر على وجوهه ، فانتهى به التفكير إلى أنه ليس هناك سوى حل واحد . . يستطيع به أن ينقذ الفتاة ، وهو أن يقدم على زواجها .

قد يكون فى فعله حمق وجنون ، بعد كل ما أنبأته به الفتاة . ولكن ما فائدة التضحية ، وإنكار الذات ، إن لم نعبأ فى الحياة على أن نقدم على مثل هذه الأمور ؟

والتقى بها ، وأسر إليها بما أضمر ، ونظرت إليه نظرة تفيض بالشكر . . وهمست فى رفق :

— شكراً . . لاداعى لأن تقدم على مثل هذه التضحية . إن مجرد عرضك إياها فيه كل الكفاية ، فلقد أشعرتنى أن الحياة لم تعدم الخلصاء ، وأنه ما زال فيها شىء اسمه الصداقة والوفاء . ولكن مادخلك أنت تقحم نفسك فى دور لاأنت ترضاه ، ولا الحياة أجبرتك عليه . . ماذنبك تشرك نفسك مع ثلاثة أشقياء . ؟ نحن ثلاثة تعساء نمثل على مسرح الحياة مأساة مريرة لن تستمر قصتنا إلى ما لا نهاية ، فلابد لأحدنا أن يخرج من المسرح ، فينهى خروجه المأساة . إن أمى تزداد عليها وطأة المرض ، وقد يكون فى خروجها من الحياة خير حل للمشكل . . من يدرى ؟

وافترقنا بعد ذلك بعد أن رفضت أن تقبل منى . . ما سمته تضحية ، وبعد أن أصرت على ألا تشركنى معهم فى مأساتهم الأليمة ، منتظرة أن تختم المأساة بخروج أحد أبطالها الثلاثة ، متوقعة أن يكون موت أمها . . هو الخاتمة .

وعجبت فى نفسى لهذا التعقيد من القدر ، وتساءلت أين هى الحرية التى تترك للبشر لتقرير مصيرهم ، واختيار الطريق السوى . . ونبذ المعوج .

هذه الفتاة التعسة . . لم يكن لها قط حق تقرير مصيرها ولا كان لها حق الخيار فيما سارت فيه . . على النقيض . . لقد دفعت فى طريق لم ترده ، ولم تستطع أن تكون ـ على حد قولها ـ ما ودت أن تكونه .

لقد علمتها التجارب . . أو التجربة الوحيدة التى لقنتها لها الحياة . . ألا تتعلق بما يجب أن تتعلق به كل أنثى . . بل بما خلقت له كل أنثى ، وهو الزوج والبنون والحياة المستقرة ، وآمنت بأن كل هذا أوهام لا يجب التعلق بها .

ثم وجدت نفسها مضطرة إلى أن تنزلق إلى أسوأ ماتنزلق إليه أنثى دون أن تعرف لها خلاصاً ، ولا تستطيع فكاكا ، وانتهى بها الأمر إلى الاستسلام والانتظار بعد أن فقدت كل أمل فى النجاة من دورها البغيض إلا أمل واحد هو موت أمها العليلة .

أى هزؤ هذا من القدر ، وأية سخرية ، وعلام كانت التضحية ، وعلام كان الإنزلاق .. إذا كان قد انتهى بها الأمر إلى أنها لا تأمل لشقائها نهاية .. إلا بنهاية أمها ، وخروجها من مسرح الحياة .

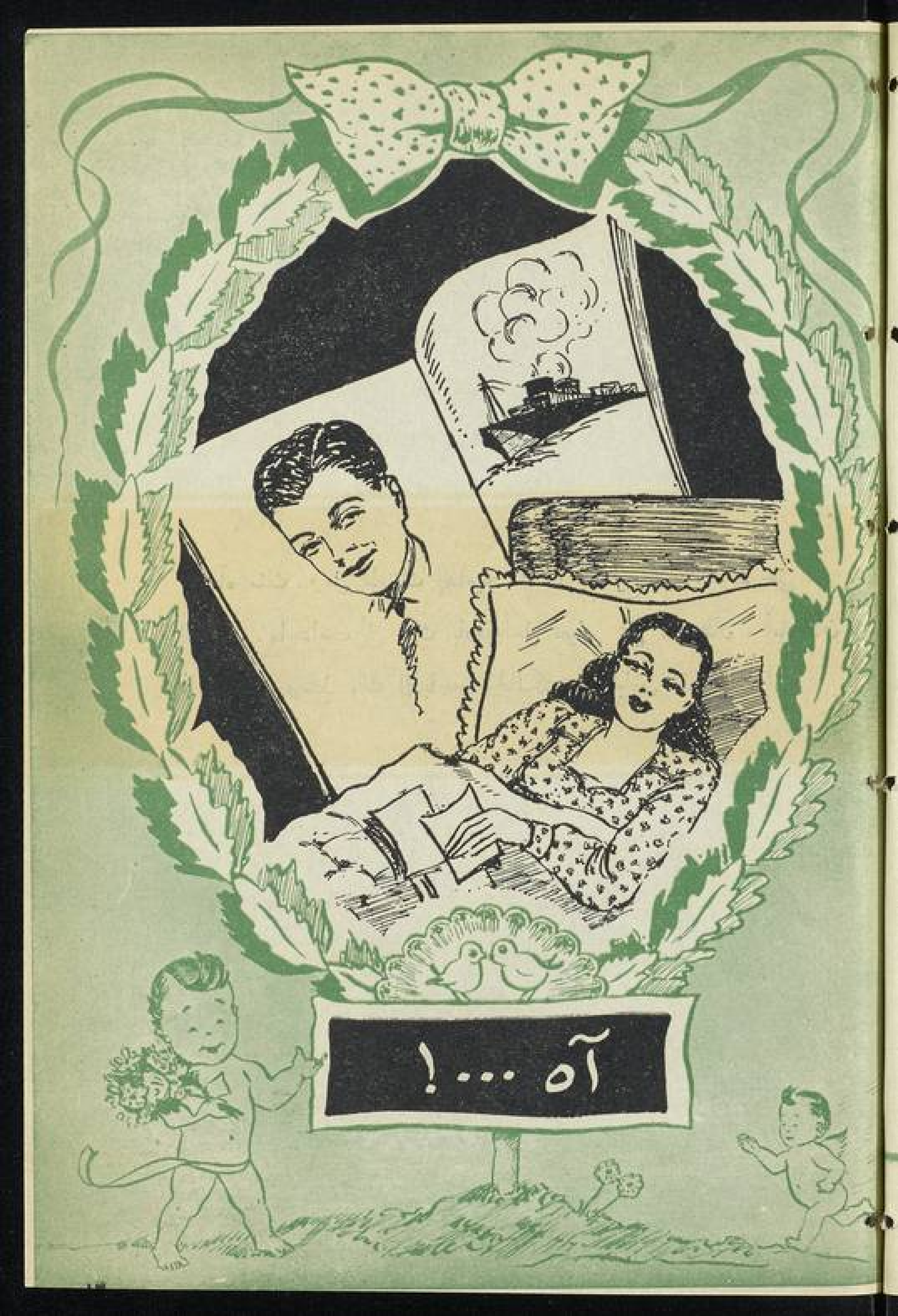
ومرت الأيام دون أن تسنح لنا فرصة لقاء ، وشغلتنى عنها ظروف الحياة ، وإن كنت لم أكف قط عن التفكير فيها والتساؤل عن كيف يمكن أن يختم القدر مأساتها ، وكيف يمكن أن ينتهى شقاءها .. إذا كان قد قدر أن يكون لشقائها - كما لكل شىء - نهاية ...

وفى ذات يوم ، علمت فجأة أن المأساة قد انتهت بخروج أحد الثلاثة ، تماماً كما تنبأت الفتاة .. لم تختلف نبوءتها عما حدث إلا فى شىء واحد ، وهو أن الذى خرج كانت هى ، ولم تكن أمها .

لقد أصابها داء لم يمهلها سوى بضع أيام . خرجت على أثره من مسرح الحياة .

يا للفتاة الشقية .. أترى السماء ستعذبها على ما أتته من منكر فى الأرض ؟ أم تراها ستقنع بعذاب الأرض ؟!

رحمها الله وإيانا .. ووقانا شر الأدوار التى تحتمها علينا الحياة ، ولا نملك إلا أن نقوم بها .



آه ... !

آه منك ، ومن طعنتك الدامية . كنت أستطيع أن أنتظرك حتى آخر العمر . . ما دامت لى فيك بارقة أمل تعينني على الانتظار ، أما الآن فماذا أفعل وسط تلك الدياجير الحالكة من اليأس المميت .

آه . . . .

يا حبيبي آه .

وماذا أملك غير آه ، أنفس بها عن ألم في الجسد ولوعة في الفؤاد . آه منك ومن داء أضنيت به القلب . . آه من علة سرت في الجسد فأنهكته وحطمته ، وتركته كأنه عود يبس أو ورق جف .

آه ! آهة حارة ملتهبة عميقة .

إني أحس بعد كل آهة بشيء من الراحة والهدوء ، ولكنها راحة عاجلة الزوال وهدوء سريع الأفول كومض البرق ، سرعان ما يعقبها ألم مستحكم ولوعة مستبدة ، فأبعث من صدري الآهة تلو الآهة ، إني أرقد على الفراش أتقلب وأتململ ، لاهثة الأنفاس مكروبة الصدر . . لست أدري موقفي بين الحياة والموت . بي أمل في الحياة ، وبي حنين إلى الموت . . بي رغبة عن العيش وخشية من الفناء ، وكل ما بي من أمل وحنين ورغبة وخشية ، منبته أنت ، ولا أحد سواك .

أنت وحدك المحرك لكل عاطفة تجيش في صدري . أنت وحدك ، كل ما أحس وكل ما أرى ، ما شرد الفكر إلا فيك وما فتحت العين إلا على صورتك ، أتوهمها في السقف وعلى الجدران ، وفي النوافذ وفي الأبواب ؛ وفي كل طيف وكل شبح .

ما وعت الذاكرة إلا ذكراك ، فهى تحفظ عنك كل شىء .. كل كلمة ، وكل حركة ، كأنها مرآة تعكس لى عنك كل ما أبصرته منك .

إنى أمد يدى تحت الوسادة ، فتلمس رسائلك ، ويسرى منها فى جسدى برودة تندى علىّ وتبل حرارتى . وأحس أنها فضلة متاع الحياة وبقية نعيم بائد ومتعة منصرمة ، إنى لأتعلق بها تعلق غريق فى كسر من حطام السفين ، إنى لأراها ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى وسط الأمواج الطاغية .

إنى أتعلق بالحياة ، لمجرد وجودك فيها ، وما دمنا كلانا أحياء ، فقد نلتقى يوماً ، ويشدنا الهوى الغابر ، فيجرى فى النفس الذابلة ماء الحياة ، ويحييها بعد طول موات .

الهوى الغابر ! ! أهكذا يا حبيبى أضحى هوانا غابراً ، نتحدث عنه كأنه شىء من التاريخ ؟

هذى رسائلك قد أخرجتها يدى لتنشرها أمام عينى .

دعنى أنثر لك منها أحاديث الهوى الغابر .. الهوى الذى ثوى ، فاتخذت له من الصدر قبراً ، أسقيه دمع العين ودمع القلب ، حتى نمت ورود الذكرى على جوانبه ، فجعلت منه زينة القبور ، كما كان حبنا زينة الحب .

آه يا حبيبى ! هل تسمع آهتى . ما بالك إذاً لا تجيب ،

إني أبصرك ، وإني أتحسس وجهك ، أجل والله هذا وجهك .
لِمَ لا تبتسم ؟ لِمَ لا تقبلني ؟ هل نسيت شفتاك القبل ؟ ما بالك لا تذكر ليالينا معاً ، ليال أبعد فيها الهوى عنا الكرى فنعمنا بيقظة الحب النقي الطاهر .

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى
يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
ثم انثنينا وقد رابت ظواهـــرنا
وفى بواطننا بره من التهم

أتذكر يا حبيبي ليلة ضمتنا كرمة الحديقة ، ليلة تسللنا من الدار خفية فاتخذنا من أوراق الكرم ستاراً يحجبنا عن ضوء القمر حتى لا يكشف أمرنا . أتذكر كيف كان الشعاع الماكر يتسرب من بين الأوراق فيمسنا فى لين ورفق ، وكأن القمر يمسح بكفه الندى على وجوهنا .

كان أول ما عرفته فى الحياة هو أننى أحبك ، فقد نشأت وحبك فى دمى ، كنت أشبه بشجرة صغيرة تروى بماء حبك ، فلما نمت وترعرعت كان حبك يسرى فى عصارتها ويتغلغل فى عروقها وأوراقها ، كنت لها الروح وكنت الحياة ، فكل ذرة فى جسدى تعلقت بها ذرة منك ، فلست أرانى إلا خليطاً منى ومنك ، كيف يمكن إذاً أن تنتزع منى ، وأن أعيش بدونك ؟

منذ عشر سنين وأنا أحبك .. كنت وقتذاك طفلة فى الثانية عشرة ، ومع ذلك فقد كنت أحبك كما لم تحب امرأة من قبل ، كنت أحبك كما أحبك الآن ، وكما سأحبك حتى نهاية العمر .

كانت دورنا متجاورة ، وكانت تجمع بين عائلتينا صلة ود قديم وصداقة متينة ، فكانت أشبه بالأقرباء ، وكنت صديقة أختك الصغرى وزميلتها فى المدرسة ، وأتاح لى كل ذلك أن أكون قريبة إليك كنفسك ، وأن أعرف كل شىء عنك كما أعرفه عن نفسى .

هل تعرف أول يوم طرق فيه حبك باب قلبى ؟ . هل تذكر ذلك اليوم الذى كنت أعدو فيه على سلم الدار فسقطت على ركبتى وسالت منها الدماء ؟ بالطبع لا تذكره ، فلا أظنه يعنيك شيئاً . أما أنا فإنى أذكر كل ماحدث فيه بالضبط ، كان يوم خميس وكنت آتية لزيارة أختك ، وأخذت أقفز على الدرج كما تعوّدت أن أقفز دائماً ، ولكن قدمى زلت فهويت على ركبتى ، وسالت منى الدماء ، وكنت تطل من النافذة ، فنزلت تعدو إلىّ ، وحملتنى بين يديك ، فغسلت ركبتى وربطتها بمنديلك ، وحنوت علىّ فى عطف وحنان ثم قبلتنى .

ماذا كان أثر ذلك اليوم فى نفسك ؟ لا شىء ، فما كنت

عندك أكثر من طفلة سقطت على الدرج ، فجرحت ركبتها ، وما كنت تحس نحوى أكثر مما تحسه نحو أختك الصغرى .

وماذا كان أثره فى نفسى ؟ أما عن القبلة ، فما زلت أحس حلاوتها حتى الآن . وأما عن المنديل ، فقد انتقل من ركبتى إلى صدرى ، لقد ضمدت به جرح ركبتى فيما مضى ، أما الآن فإنى أضعه على صدرى ، علّى أضمد به جراح قلبى ، لقد كان ذلك اليوم بداية حياة جديدة ، أو قل أنه بداية حياتى ، فما أذكر أنى كنت أحيا قبل ذلك ، لم أكن خلال تلك الفترة السابقة أكثر من جنين لم ير ضوء الحياة بعد .

هل الحياة هى أن نأكل ونشرب وننام ونستيقظ . ما الفرق إذاً بين الإنسان والحيوان ؟ إن الإنسان يحيا بقلبه وغذاء القلب وهواؤه هو الحب ، فإذا لم يحب الإنسان ، فقد هواء الروح وغذاء القلب ، وأضحى هو والعدم سواء .

منذ ذلك اليوم — وقد أضحت رؤيتك غذاء نفسى — لا أحتمل أن يمر بى يوم دون أن أراك ، ولم تكن رؤيتك بالأمر الشاق ، إذ كنت أقضى عند أختك جل وقتى .

كم تسللت إلى غرفتك فى غفلة منهم ، فجلست إلى مكتبك وضممت كتبك إلى صدرى ومسستها بشفتى ؛ لأنى أعلم أن يدك قد مست صفحاتها وكنت أشم بين أوراقها عبق أنفاسك

وأسمع بين سطورها همس شفتيك ، كم اختلست اللحظات لأتحسس فراشك ؛ وأدفن وجهى فى وسادتك ، وأقبل كل ما تمسه يدى من أمتعتك ، كأننى عابدة فى هيكل مقدس .

ومرت بى الأيام وأنت لا تحس بى أو تحس بى كأخت لك ، وأنا راضية قانعة أرقبك من بعد ؛ لا يزور الكرى عينى إلا إذا نمت أنت . كنت أرقب حجرتك من نافذتى ، أتطلع إليها كما يتطلع المؤمن إلى السماء ، لا يرى ربه ، ولكن ملء نفسه الإيمان به .

وفى الليالى التى كانت غيبتك تطول ، والتى كنت لا أبصر فيها ضوءاً فى حجرتك ، كنت أجلس فى انتظارك ، وكأنى من فرط القلق على جمر اللظى أو شوك القتاد ، وكلما سمعت وقع أقدام فى الطريق مددت رأسى من النافذة فإذا لم أتبينك تملكنى الخذلان وعدت إلى الانتظار ، وهكذا أظل حتى تحضر وأطمئن فأذهب إلى النوم .

وأخيراً يا حبيبى ، بدأت أسمع لحبى صدى فى نفسك .

كيف ؟ . لست أدرى ، وما حاولت قط أن أدرى ، لقد كان حسبى منك ومن الحياة بمجرد الإحساس بأنى قد أضحيت عندك ذات موضوع وأنك بدأت تهتم بى ، وتختلس

إلىّ النظرات ، وتترقب المواعيد ، وتطيل من أوقات بقائك فى الدار .

إنى لم أدع قط الذكاء ، ولا قوة الملاحظة ولكنى ، كنت فى اكتشاف حبك لى من أشد الناس ذكاء ، وأقواهم ملاحظة . كنت تحاول أن تجعل لقاءنا صدفة ، ولكنى كنت أعلم أنه كان وليد تدبير ، وكنت أحس أنك ترقبنى دون حاجة إلى أن أنظر إليك .

أية سعادة تلك التى كانت تغمرنى وقتذاك ؟ لقد بدأت تتطوع لمساعدتنا أنا وأختك فى الاستذكار وعمل الواجبات ، وأخذت تقضى الساعات الطوال معنا فى الحجرة ، ترسم لى رسماً أو تكتب لى واجباً ، وأنا أنظر إليك صامتة اللسان صخابة الحشا . . يكاد ينوء كاهلى بما حمل من صنوف السعادة وألوان الهناء . وهكذا بدأ بيننا دور الحب الصامت ، تثب الضلوع للضلوع ، ويخفق القلب للقلب ، وتهفو الروح للروح ، وتنبض المهجة للمهجة ، وتشتعل العين من العين . أما الشفاه فلا تنطق ، حتى كان ذلك اليوم الخالد يوم لقائنا تحت الكرمة قلت لى هامساً إنك تريد أن تسر إلىّ شيئاً ، وطلبت منى أن ألقاك فى كرمة الحديقة عندما يسقط الظلام ، وأحسست أن قلبي يكاد يقفز من بين أضلعى ، وعرتنى إذ ذاك هزة

وتملكني الارتباك ، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة .. وانطلقت هاربة لا ألوى على شيء ، وعندما سقط الظلام ، كنت أسترق الخطى إلى هناك .

آه . . .

آه يا حبيبي من حلاوة الذكرى ومرارتها .. آه من جرح يدمى ، ومن قرح ينكأ . . آه من ليلة لم تنسها النفس ، ولم يسلها القلب .. ليلة تساقينا فيها الغرام ، ومزجنا الروح بالروح .. ليلة لم تبق لى منها إلا حسرات وآهات .

لكأنى بالقدر وهبنا إياها خلسة فلشد ما كانت متعتنا فيها سريعة المسترد ، إذ عرفت فى اليوم التالى لها أنك ستسافر فى بعثة إلى الخارج .

ولقد أصابنى هم شديد ، برغم أنى كنت أعرف أن فى السفر تقديراً لك وازدهاراً لمستقبلك ، ولكنى كنت أخشى الفرقة وأوجس منها خيفة ، ولقد صدق حدسى . فحدث ما حدث .

بعد بضعة أشهر من سفرك أنبأتنى أمى أن ابن خالتى تقدم لخطبتى ، ووقع النبأ علىّ وقوع الصاعقة ، وأجبتها بأنى لا أريد الزواج . ولكن المسألة لم تكن من السهولة بحيث يكفى أن أرفض الزواج فينتهى الأمر .

لقد ظنوا قولى بادىء الأمر تدللا وخجلا ، ولكن عندما

اتضح لهم إصرارى تملكهم الدهش ، فلقد كانوا يرون فى ابن خالتى نموذجاً للزوج الكامل من كل ناحية ، وزاد إلحاحهم علىّ ، وأخذوا يضيقون علىّ الخناق ، حتى اضطررت فى النهاية إلى أن أنبىء والدتى أنى لن أتزوج سواك .

وهنا بدأ دور النصح وأفهمونى أن من العبث أن أحاول انتظار الغد المجهول ، وأن عصفوراً فى اليد خير من ألف على الشجرة .

أجل ياحبيبي لقد أخذوا يذمون لى فيك ويوازنون بينك وبين ابن خالتى رافعينه إلى الذرى خافضينك إلى الحضيض . ولكنهم كانوا كناطحى الصخر . فما وهنت قط أمام أقوالهم وصممت ألا أتزوج سواك . حتى كان ذات يوم ، وهنت فجأة وتهاويت وتخاذلت . بل خررت أمامهم صريعة ، عندما أخبرونى أنك تزوجت !!

آه منك ومن طعنتك الدامية . كنت أستطيع أن أنتظرك حتى آخر العمر . ما دامت لى فيك بارقة أمل تعيننى على الانتظار . أما الآن فماذا أفعل وسط تلك الدياجير الحالكة من اليأس المميت ؟!

مضت فترة وأنا لا أكلم أحداً ولا أسمع لأحد ، عافت نفسى الأكل ، وهجر عينى الكرى ، حتى بدأت أتمالك وأتماسك

وأتجلد على هجرك وأتصبر ، وأخذوا هم يلحون علىّ فى قبول ابن خالتى ، حتى تمت الخطبة . ماذا يضيرنى أن أتزوجه هو أو سواه ، إن كل الناس عندى سواء بعد أن فقدتك ؛ ولم تمض بضعة أيام على الخطبة حتى رقدت طريحة الفراش .. أرزح تحت أعباء المرض .

إنى أحس بالداء ينخر فى جسدى ، وينتابنى أحياناً شعور بأن أيامى فى الحياة قد أضحت معدودات برغم أنهم يحاولون أن يبعثوا الطمأنينة فى نفسى ويخففوا أمامى من خطورة حالتى .

إن أكثر ما يثقل علىّ فى محنتى ويوجع نفسى ، هو أننى مخطوبة لغيرك . كم تتملكنى رغبة شديدة فى أن ألقى بالخاتم من النافذة لأنى أحس أنه يحز فى إصبعى وفى قلبى . أجل .. كان يجب علىّ ألا أقبل غيرك ، إما أنت أو لا أحد سواك . كان يجب علىّ أن أنتظر .. أنتظر حتى نهاية العمر . من يدرى ؟!! إننى أحس بالندم يحز فى نفسى . إننى لا أحتمل هذا الخاتم الثقيل ، سأقذف به من النافذة وسآمرهم أن يفكوا الخطوبة وليفعلوا بى ما يشاءون .

° ° °

وطويت المفكرة بعد أن انتهيت من قراءتها ، ومددت يدى بها إلى صاحبي فى صمت وسألته هامساً :

— وهل فكت الخطبة ؟

فأجابنى صاحبي ، وقد شرد ذهنه وتاه بصره :

— أجل .. لأنها ماتت . لقد عدت من الخارج فوجدتها قد ذهبت ، وأعطتنى أمها المفكرة وهى تنشج باكية ، وقالت لى : « إنها لك كما كانت صاحبتها لك ، غفر الله لها ولهم . لقد اتهمونى كذباً بالزواج ، وعلم الله إنى ما نسيتها لحظة واحدة وانى كنت أعد الدقائق واللحظات لأعود إليها .

وأطرق صاحبي برأسه ولمحت فى عينيه عبرة تترقرق . . وخرجت من صدره — حارة ملتهبة عميقة مريرة — كلمة « آه » .

تحت الطبع

أساطير الأولين

من العالم المجهول

صور طبق الأصل

مبكى العشاق

هذه النفوس

فهرس

الإهداء ٣
المقدمة ٥
دميـة ٩
حديث كرمة ٢٣
هذه الرّبوة ٣٥
قرّبي شفتيك ٥١
هل تذكرين ؟ ٦٥
سلوا الربيع ٨١
ليتـه ما عاد ٩٧
حائرة ١٢٥
رسالة راحلة ١٤١
دائماً معي ١٥٧
نهاية شقاء ١٧٥
آه ١٩٣

شركة فن الطباعة
لصاحبها سليم شحبرت
شارع الأنتصار رقم ١ شبرا مصر
تليفون ٥٨١٤٩ منزل برقم ٤ شبرا
تلغرافيا مصر ٦٠٩٢٣

شركة فن الطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرا مصر ـ تليفون ٥٨١٤٩